بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة اليرموك
كلية الآداب
ماجستير: أدب ونقد

البنية السردية والتوظيف التاريخي في رواية أرض السواد لعبد الرحمن منيف

دراسة عامة

The Narrative Structure and it's Historical function Abdulrahman Munifs Novel "Ard AL-Sawad"

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في الأدب والنقد

مقدمة من الطالب
أحمد علي بني حمود
٢٠٠٦١٠١٠٣٦

إشراف الدكتور
حامد كساب العيسى

الفصل الدراسي الأول
٢٠١٠م – ٢٠١١م

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

البنية السردية والتوظيف التاريخي في رواية" أرض السواد" لعبد الرحمن منيف

The Narrative Structure and it's Historical function Abdulrahman Munifs Novel "Ard AL-Sawad"

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في الأدب والنقد

مقدمة من الطالب: أحمد علي بني حمود

إشراف الدكتور: حامـــد كسّاب العيســـى

لجنة المناقشة

١- الدكتور حامد كسّاب العيسى.....مشرفاً ورئيساً.

٢- الأستاذ الدكتور نبيل يوسف حداد..... عضواً.

٣الاستاذ الدكتور خليل محمد الشيخ.....عضواً.

٤- الدكتور عيسى قويدر العبادي.....عضواً.

٢٠١٠/١٢/٦م

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الإهـــــــــــداء

إلى كل من غرس فسيلة في دروب العلم.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

كلمـــة شكـــر

الشكر كله لله عز وجل، وله الحمد وعليه الثناء الجميل ومنه المنة والفضل، وبه الـــسداد والتوفيق، ومن ثم الشكر لكل من قدم إليَّ الدعم والمساعد، وكل من أتاح له فرصـــة الـــتعلم، والشكر لجامعتي اليرموك وأساتذتها وموظفيها، والشكر موصولاً لأهلي، والـــشكر الجزيـــل للدكتور حامد كساب ـــالمشرف على هذه الرسالة ـ الذي لـــم يـــدخر جهـــداً فـــي إرشـــادي ومساعدتي على انجاز هذا العمل، والشكر للدكتور خليل الـــشيخ الـــذي وجهنـــي وأرشـــدني لموضوع رسالتي، والشكر لرئيس وأعضاء لجنة المناقشة الأكارم،الدكتور حامد كساب وأستاذ دكتور نبيل حداد وأستاذ دكتور خليل الشيخ والدكتور عيسى العبادي. هذا وإن أحسنت فبتوفيق من الله، وإن أخطأت فمن نفسي.

والله هو هادي السبيل.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفهرست

الموضوع..... الصفحة.

الإهداء.....ج

كلمة شكر.....د

الملخص.....ز

المقدمة.....١

ثلاثية أرض السواد.....٤

الباب الأول: المضامين الاجتماعية في رواية أرض السواد.....٧

١- الحياة الاجتماعية.....٨

- الفقراء والأغنياء.....٨

- اللباس.....٨

- الطعام والشراب..... ١٠

- الغناء والرقص.....١١

- الحزن الجماعي..... ١٤

- الزواج..... ١٧

- المرأة..... ١٩

- المرأة والجنس.....٢١

- المرأة البغي.....٢٢

٢- :الحياة الدينية في رواية أرض السواد.....٢٥

- رجال الدين.....٢٥

- الدين والأخلاق. ٢٧

- الدين والسياسة.....٢٨

٣- الحياة السياسية في رواية أرض السواد.....٢٩

- العلاقات الدولية/ بريطانيا.....٢٩

- العلاقات الدولية/ فرنسا.....٣١

- العلاقات الدولية/ اسطنبول.....٣١

- مراكز القوى.....٣٣

- العسكر.....٣٣

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

- النساء النافذات في السلطة.....٣٤
- جهاز الأمن والاستخبارات.....٣٦
-الجيش.....٣٦
٤- الحياة الاقتصادية في أرض السواد.....٣٨
- المال. ٣٨
- التجارة.....٤٠
الباب الثاني: الشخصيات في أرض السواد.....٣٤
- الشخصية التاريخية.....٤٤
- عوامل تشكل الشخصية التاريخية.....٤٤
- شخصية داود باشا.....٤٦
- الشخصيات الشعبية.....٥٩
الباب الثالث: الفضاءات الروائية في رواية أرض السواد.....٧٢
- فضاء الزمان.....٧٣
- فضاء المكان.....٧٨
- فضاء الطبيعة.....٨٥
- فضاء الرحلة. ٨٦
الباب الرابع: البنية السردية في رواية أرض السواد.....٨٩
- الراوي.....٨٩
- التقنيات السردية.....١٠٠
- اللغة الفصيحة واللهجة المحكية.....١١٠
- الخطاب الروائي.....١١٣
- المثل.....١١٧
- الحكاية الشعبية.....١٢١
- الخاتمة.....١٣١
- المصادر والمراجع.....١٣٣
- الدوريات والرسائل.....١٣٦
- الملخص باللغة الانجليزية..... a

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الملخص

ركزت هذه الدراسة على البحث في البنية السردية في هذه الرواية، وعلى الراوي ودوره في تحديد المسارات الروائية والاتجاهات الحكائية في إدارة الأحداث وتوزيعها في جميع فصول الرواية، وقد بيَّنت الدراسة مدى قدرة السارد على إدارة الأحداث ونقل القارئ من مركز الرواية بغداد إلى مناطق الجنوب العراقي ومن ثم إلى مناطق الشمال فيه، وقد كانت كل هذه التنقلات الممتدة والواسعة وأحداثها مترابطة ومتسلسلة دونما اختلال يفصل حلقات الرواية، باستثناء بعض القَطْع الحكائي المقصود من قِبَلِ السارد ليعود إلى ذكره عندما يحتاجه من خلال الاسترجاع الروائي، مستخدماً بعض التقنيات السردية التي تعينه على إتمام روايته.

كما قامت هذه الدراسة بتحليل بناء بعض الشخصيات الروائية كشخصية داود باشا والي بغداد التي كانت تابعة للدولة العثمانية في تركيا، حيث جيء به من مدينة(تفليس) الجورجية وهو طفل صغير، كما ذكرت الدراسة بعض الجوانب السياسية التي كانت تمس العلاقة المباشرة وغير المباشرة بين والي بغداد داود باشا والقنصل البريطاني ريتش المستعمر الأجنبي.

ثم قامت الدراسة بالبحث في رواية عبد الرحمن منيف أرض السواد، محاولة الإلمام بجوانب الرواية الرئيسية، وإظهار الحوارات الروائية الكثيرة والمتنوعة والتي غلَّب فيها السارد اللهجة العراقية المحلية على اللغة الفصيحة بين فئات المجتمع العراقي، فتناولت الدراسة جميع جوانب الحياة العراقية في بعض المدن الرئيسية في العراق كمدينة بغداد -المركز الأساسي في أرض السواد- التي كانت تدور فيها أغلب الأحداث الروائية، ومدينة البصرة الواقعة في أقصى الجنوب العراقي، ومناطق الشمال المتمثلة بمدينة الموصل ومدينة

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

كركوك التي كانت مكاناً منشوداً للرحلات في الرواية، وغيرها من المدن العراقية التي كانت تقع فيها بعض الأحداث في تلك المرحلة.

ثم جاءت الرواية لتبرز المظاهر الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية وخصوصيات الحياة العراقية وعاداتها وتقاليدها؛ فتمثلت الحياة العراقية الاجتماعية في الزواج والطعام والشراب واللباس والغناء والرقص، وأظهرت الدراسة الطقوس الدينية، كما أظهرت الدراسة الحياة العراقية السياسية وتعمقت في دراسة الحوارات الهادئة والساخنة بين الناس وما بين رجال السراي ورجال الباليوز-القنصلية البريطانية- كما قامت الدراسة بتحليل الحياة الاقتصادية ودورها في التأثير على الحياة السياسية، التي تمثلت في الزراعة والتجارة.

وقد اجتهدت في هذه الدراسة في البحث عن المصادر والمراجع المفيدة التي تسهم في نجاحها، فاستفدت من بعض كتب التاريخ وكتب النقد والأدب وبعض الروايات والدوريات والرسائل الجامعية، وقد تكونت هذه الرسالة من أربعة فصول: فدرست في الفصل الأول "البنية السردية في رواية أرض السواد"، وفي الفصل الثاني "الشخصيات الروائية في أرض السواد"، وفي الفصل الثالث "الحياة العراقية في أرض السواد"، وفي الفصل الرابع "الفضاءات الروائية في رواية أرض السواد".

وقد أفادت الدراسة من بعض المراجع المهمة التي أمدتها بالمعلومة المفيدة، وقد كان في طليعة هذه المراجع :دراسة نضال الشمالي "الرواية والتاريخ"، ودراسة الرشيد بشير بوشعير" توهج مَلّ الرماد في ثلاثية أرض السواد"، ودراسة مدحت الجيّار" قناع السرد في أرض السواد".

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المقدمة

كان المحرك الأساسي لدراستي لهذا الموضوع " البنية السردية والتوظيف التاريخي في رواية "أرض السواد" لعبد الرحمن منيف هو الاهتمام بدراسة أحد الأعمال المهمة لهذا الروائي، وبعد البحث عن أحد الأعمال غير المدروسة دراسة وافية له وجدت من المفيد أن أتناول في دراستي هذا العمل الروائي الفني الكبير.

وقد اهتمت الدراسات النقدية بعلاقة التاريخ بالأدب اهتماماً نظرياً وتطبيقياً، وقد حاولتُ في هذه الدراسة أن أقدم جهداً متواضعاً يساهم في إثراء هذه الدراسات، فقمتُ بدراسة البنية السردية وأساليبها التي انتهجها عبد الرحمن منيف في روايته "أرض السواد"، والبحث في التقنيات العديدة التي حبكت عمليات السرد والحوار والمنولوج بين شخصيات الرواية المتعددة، وتحليل الشخصيات الروائية في الرواية، الحقيقية منها والمتخيلة، كما أشرتُ إلى الحقبة التاريخية التي شملتها هذه الرواية والواقعة بين عامي ١٨١٧-١٨٣١م،إبان حكم داود باشا ولاية بغداد التي كانت تابعة للدولة العثمانية والواقعة في الوقت نفسه تحت سيطرة الدولة البريطانية.

وقد جاءت الدراسة في أربعة أبواب، درستُ في الباب الأول "البنية السردية في رواية أرض السواد"، فكانت العناية بعمل الراوي والتقيات السردية واللهجة العامية والفصيحة والخطاب الروائي والمثل والحكاية الروائية، وقد تم دراسة هذه الأمور دراسة واعية، أمّا الباب الثاني فقد كان بعنوان "الشخصيات الروائية"، فكانت شخصية داود باشا بارزة في الرواية إلى جانب شخصية ريتش القنصل البريطاني، وقائد جيش داود باشا السيد عليوي، وسيفو الشخصية البارزة بكثافة في هذه الرواية، وغيرها من الشخصيات الأخرى التي كان لها دور بارز في إثراء الأحداث والحوارات في الرواية، وكان الباب الثالث معنياً "بالحياة

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

العراقية: الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية"، فقدمت في هذه الدراسة حياة أهل أرض السواد(العراق) بأغلب جوانبها، وما لهذه الجوانب الكبيرة من تشعبات وتفاصيل الحياة اليومية التي أمدَّت في عمر الرواية التاريخي حيث غطت فترة حكم داود باشا لولاية العراق والفني وذلك من خلال تعدد الحوارات والشخوص والأماكن في الرواية، وعُني الباب الرابع "بالفضاءات السردية في الرواية"، فبينتُ في الدراسة الفضاءات الروائية المتعددة والمتنوعة التي كان لها حضور ملفت على امتداد فصول الرسالة، وقد تمثلت بفضاء الزمان والمكان والطبيعة والرحلة، وما تمثله من تفاصيل فضائية فرعية أعانت المؤلف على إيصال أحداث الرواية إلى المتلقي بشكل محدد ودقيق.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه الدراسة قد واجهتها صعوبات عديدة كان منها: التنقل بين كتب الأدب وكتب التاريخ وخاصة المتعلق بالتاريخ العراقي في زمن أحداث الرواية، والبحث عن المعلومة التاريخية التي تفيد في هذه الدراسة، كما كانت اللهجة العامية ومفرداتها الخاصة بحاجة إلى مزيد من الفهم والإدراك الصحيح لمعانيها كي تستقيم عملية فهم الرواية بشكلها المطلوب، إضافة إلى تعدد شخوص الرواية والتعدد في إقامة الحوارات المكثفة بينهم، وتتبع مرحلة حكم داود باشا للعراق و المراحل التي تضمنتها فترة الحكم، والمحاولة الجاهدة للتحقق من الأحداث التاريخية الحقيقية والأحداث الروائية المتخيلة.

وقد اتكأت الدراسة على بعض الدراسات المهمة حيث أخَذْتُ مما قدمته تلك الدراسات عن هذه الرواية، وكان في طليعة هذه الدراسات: دراسة نضال الشمالي: "الرواية والتاريخ"، التي انطلقت من ثلاثة محاور رئيسة وهي: مسوغات لجوء الرواية إلى التاريخ، والموازنة بين الروائي والتاريخي، والتعامل الفني مع الشخصية التاريخية، وذكر مسوغات اللجوء إلى الكتابة عن التاريخ بأعمال أدبية، وركزت دراسة حاتم عبد العظيم" أرض السواد...أرض

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الناس" على الراوي الذي يضطلع بكافة المهام السردية داخل النص وقدرته على تقديم الوحدات السردية وعنايته بفضاء المكان، كما قامت بتقسم الشخصيات في الرواية إلى شخصيات مرتبطة بالسلطة، وشخصيات مرتبطة بالباليوز"القنصلية البريطانية"، وشخصيات تمثل شعب العراق، وكشفت دراسة مدحت الجيار"قناع السرد في أرض السواد" الأقنعة السردية التي اختبأ وراءها عبد الرحمن منيف في روايته "أرض السواد"، فالمؤلف لم يقل ولم يفعل وإنما يحيل القول والفعل إلى الشخصيات الرواية الكثيرة في الرواية، كما أنها ترصد وضعاً تاريخياً حقيقياً عاشته بغداد وباقي المدن العراقية، وأشارت دراسة الرشيد بوشعير"توهج مَلّ الرماد في ثلاثية أرض السواد" إلى المادة التي استقى منها منيف روايته وهي المرحلة التاريخية التي حكم فيها داود باشا بغداد، وقدرته على تطويع التاريخ لكتابة الأدب ومنه كتابة روايته "أرض السواد". كما تطرق بوشعير إلى الحديث عن اللهجة العامة والفصيحة في الرواية، وعدم إسناد الرواية إلى بطل بعينه، بل كان هناك العديد من أبطال الرواية الشعبيين والسياسيين.

وعلى الرغم من قيام هذه الدراسات بدراسة رواية "أرض السواد"، لكنها كانت تنقص بعضها الدراسة التفصيلية ودراسة بنيتها السردية بشكل متكامل، إذ كانت بعض هذه الدراسات قد تناولت الرواية بشكل جزئي غير متكامل، مركزة على بعض الجواب الفنية فيها ومغفلة بعض الجوانب التي أراها مهمة في الدراسة.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ثلاثية أرض السواد.

البداية تكون مع العنوان: لعلَّ الروائي في رواية أرض السواد التي أراد أن يفتتح بها روايته بأشعار سومرية وبابلية أرد أن يمجد البلد العظيم ويبكيه، إنَّها أرض السواد، والسواد هو اشتداد الخضرة والخصب، كناية عن سواد جنة ما بين النهرين منذ الطوفان في الزمن الأول، ومنذ أن غدا السواد بستانا لنقرشَ في الزمن الثاني، وكناية عن سواد مآسيها منذ مصرع "أنكيدو" وبكائيات جلجامش، مروراً بمصرع الحسين، وبكائيات كربلاء وصولاً إلى ماسي الإنسان العراقي العادي.

كما كان التركيز على سقوط بغداد في الرواية متوازيا مع سقوط بغداد على يد التتار، كما يتوازى مع سقوط حضارة سومر، وآكاد وبابل، وأور، وأصبح العنوان أرض السواد مناسباً لهذه الأرض السوداء الخصبة، التي ترتدي السواد رمز الحزن .

وليس غريباً في هذه السياقات التاريخية والسياسية والاجتماعية أن تسود التفسيرات الغيبية والشعبية لكل ظواهر الحياة والطبيعة في آن واحد وليس غريباً أن يلمح الروائي أطراف الصراع وعناصره من البداية، وأن تكون بغداد حاملة لكل التناقضات وحتى نهاية الرواية مع رحيل القنصل الانجليزي وقتل جواسيسه.

أرض السواد رواية تجري أحداثها في مساحة زمنية ضيقة نسبياً، لا تتعدَّ بضع سنين، كما تتنوع الأماكن التي تجري فيها الأحداث، وهذه الأماكن تتطلب الاكتشاف والتعرف عليها، نظراً لغناها وتعددها.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وفي وصف الرواية يصفها عبد الرحمن منيف بأنها لوحة فسيفساء كبيرة تتألق من أدق الحجارة وأصغرها، وأي خدش نتيجة غياب حجر من حجارتها يجعلها ناقصة أو مشوهة، وهذا ما كان في ذهن منيف وهو يبني أرض السواد.

قد تبدو الأجزاء لأول وهلة مستقلة متباعدة، ومن يرى أن منها زائد وغير ضروري، ولكن لو حاولنا رفع جزء منها لأفسد البناء كله، وقد ينهار لأن الخيوط الداخلية التي لا ترى تجمع وتوحدن وهي التي تعطي النكهة والقوام، ولعل غياب جزء من هذه الخيوط يخلخل العمل بأسره.

ثلاثية روائية لعبد الرحمن منيف تطرقت لتاريخ العراق الاجتماعي والسياسي خلال القرن التاسع عشر ركزت بالأساس على تفاعلات الشخصية العراقية مع الأحداث العالمية الكبرى آنذاك كهزيمة نابليون في مصر وبقايا فكر الثورة الفرنسية في العالم والأطماع الإنجليزية في الشرق وظلال السلطة في عاصمة الخلافة.

تناول الجزء الأول تفاصيل وصول داود باشا إلى كرسي الولاية مبرزا أساليب الحكم في أرض الرافدين وكانت كل الشخصيات تدور في فلك السراي عكس الجزء الثاني الذي تحرر منها وخرج إلى شوارع بغداد ثم متبعا رحلة القنصل البريطاني ريتش الذي كان المحرك الثاني للأحداث إلى الشمال وكانت شخصية بدري أهم شخصية في هذا الجزء وهي التي حولت أكثر الأحداث من بغداد إلى كركوك. في الجزء الثالث بعد أن اطمئن داود باشا على حكمه عبر حملات على الشمال والجنوب المتمردين دخل في صراع مباشر مع القنصل البريطاني الذي لم يجد سبيلا أمام صعود الباشا الا التهديد بأوراق التدخل العسكري البريطاني

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وتنتهي الرواية على نغمي الفيضان السنوي لدجلة والصراع غير المحسوم بين داود باشا والقنصل البريطاني.

أبرز ما يميز هذه الرواية أنها آخر ما كتب عبد الرحمن منيف (١٩٩٧-١٩٩٩) واعتبرها البعض محاولة للرجوع إلى منابع الطفولة خاصة أنه أهدى هذا العمل إلى أمه نورة العراقية التي أرضعته حب العراق كما قال وقد استعمل في الحوار اللهجة البغدادية بكل تفاصيلها اليومية وبث في أرجاء الرواية النظرة العراقية للأشياء.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الباب الأول: المضامين الاجتماعية في رواية أرض السواد:

١- الحياة الاجتماعية في رواية أرض السواد:

- الفقراء والأغنياء.
- اللباس.
- الطعام والشراب.
- الغناء والرقص.
- الحزن الجماعي.
- الزواج.
- المرأة.
- المرأة والجنس.
- المرأة البغي.

٢- :الحياة الدينية في رواية أرض السواد:

- الدين والأخلاق.
- رجال الدين.
- الدين والسياسة.

٣- الحياة السياسية في رواية أرض السواد:

- العلاقات الدولية/ بريطانيا.
- العلاقات الدولية/ فرنسا.
- العلاقات الدولية/ اسطنبول.
- الباشاوات البغدادية.
- العنف ميزة أهل الحكم.
- النساء النافذات في السلطة.
- مراكز القوى.
- العسكر.
- الجيش.
- جهاز الأمن والاستخبارات.

٤- الحياة الاقتصادية في أرض السواد:

- المال.
- التجارة.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

١- الحياة الاجتماعية في رواية أرض السواد:

- الفقراء والأغنياء:

بدت صورة الفقراء في أرض السواد بائسة مزرية، فهم يموتون بصمت ولا أحد يحس بهم، ولا أحد يعرف قبورهم، وشاهد هذه الصورة ما يقوله أحد رجال أرض السواد مشيراً إلى هذا الأمر طارحاً سؤالاً استنكارياً: "لعاد الفقراء شلون يموتون؟! بمزيقا وطبل؟!"[١]. وعندما يتحدث منيف عن الفقراء في روايته فإنه يلح على الوضع السيء الذي يعيشه هؤلاء، "فهم يركضون من الصبح إلى المسويات والعَشَا خَبِيز!!"[٢].

أما الأغنياء فهم الكبار والقادة وبعض التجار المقربين منهم، وهم قلة قليلة، استأثرت بالثروة العامة وراحت تنهبها وتبددها ومن الحكام وكبار القادة والموظفين الإداريين وبعض التجار، وهم "يطيحون بالنعمة، ويحرقونها حرقاً، ولا يأبهون بالفقراء اطلاقاً، حتى الطعام الزائد في السراي يُرمي ويعطي للكلاب"[٣].

- اللباس:

ويصف ناطق أفندي الموظف لدى داود باشا اللباس بفلسفته المتعلقة بالثياب والأزياء، ويبالغ في آرائه، فهو يرى أن زي الرجل لا يقل أهمية عن الكلام الذي يتفوه به، فالملابس غير المناسبة تجرح العين، وتخلِّف ألماً في النفس، كما أن الناس يُعرَفون من خلال الملابس التي يرتدونها' ولولا ذلك لتساوى الفقير بالغنى والحاكم بالمحكوم.

---

(1) عبد الرحمن منيف، أرض السواد، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط٤، ٢٠٠٤م، ج١، ص٤٥٤.

(2) نفسه، ج١، ص٤٢٤.

(3) نفسه، ج١، ص٤٤٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

"بل إن الثياب في أحيان كثيرة تدل على حصافة الرجل ومدى ما يتمتع به من ذوق وكياسه، وإن الحكمة التي تقول: كُل ما تريد والبس ما يريده الناس، لم تأتِ من فراغ... ويسرف ناطق أفندي، نظراً لانشغاله بهذا الموضوع، في التأمل والتفكير، بحيث أوصله تأمله، وقاده تفكيره للحلم بإعداد كتاب، وقد استرسل في هذا الحلم إلى درجة أن وضع عنواناً للكتاب: "أقوم المسالك في الزي والتصرف وما إلى ذلك" وفكَّر أيضاً أن يفرد فصولاً طويلة حول ملابس القواد والأنفار"[٤].

إن مواقف ناطق أفندي هذه غير مستمدة من المجتمع البغدادي آنذاك، ولا تعكس أراءً شعبيَّةً أو سلوكاً جماعياً لدى العامة، إنها رؤية خاصة مكتسبة، ربما تكون معتمدة من ثقافة المرحلة الرسمية، فنجده يتحدث عن الطبقات العليا، وعن الرسميين والسياسيين والدبلوماسيين والعسكريين، وليس عن عامة الناس، في مقابل ذلك نجد موقف القنصل البريطاني ريتش – الذي سجله عندما زار السراي الحكومية بعد ترميمها– حيث أبدى انزعاجا واضحاً عندما رأى أن "داود باشا" قد رمَّم السراي ونظَّمها من حيث الشكل والمناصب والإدارات، وأزعجه أيضاً أن يرى الحراس والجند في ملابس موحدة، منتقاة، بحسب مواقعهم ووظائفهم بعناية فائقة، لأنه لا يريد أن يرى الشرقيين بهذا التنظيم وهذا التطور، نظراً للنظرة الدونية التي يتطلع بها الغربيون للشرقيين.

"أما الشيء الذي لم يصدقه ريتش فذلك الانتظام الصارم أثناء زيارته للسراي، بدءاً من حراس البوابات وانتهاء بالذين يقدمون الغلايين، لقد تغيرت الأشكال والهيئات، ملابس

---

[4] انظر: أرض السواد، ج١، ص٣٥١-٣٥٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

موحدة للمجموعات حسب مواقعها أو حسب الوظائف، وكلها في غاية الاتقان واللياقة، وكأن هؤلاء أُدخلوا دورات أو أُستبدلوا بغيرهم أكثر كفاءة"[٥].

لم يكن تبديل الثياب في "السراي" أو توحيدها أو العمل على اختيار المناسب منها منفصلاً عن خطة "داود باشا" القاضية بإقامة دولة قوية. وتشير ملاحظة "ريتش" واهتمامه بالأمر إلى خوفه من تلك الخطة تحديداً لتكتسب الملابس من هذا المنظور دلالات اضافية، تعكس صراع الإرادات السياسية التي عانت منها بغداد آنذاك[٦].

- الطعام والشراب:

يرى ريتش أن الشرقيين يهتمون بالطعام أكثر ما يهتمون من أي شيء آخر إلى درجة أنهم يصبحون نهمين شرهين،إذ يتوافق ريتش مع طبيبه الخاص(رايت) الرأي وكذلك مساعده (ميناس)، ويدعم هذا الرأي منيف عندما يبرز نهم العراقيين وإسرافهم في الطعام، فهذا يحيى بك نائب الباشا "كان يهتم بالأكل إلى أقصى حد، وكان لديه طباخٌ فارس... يعرف كيف يلبي رغباته ...لقد أرسل طباخه إلى أحد أصدقائه كي يتعلم من طباخه إعداد طبقٍ تذوقه فأعجبه! وهو دائماً مولع بأن يولم للوجهاء، ولرجال الدين، وللنافذين"[٧].

إذا كان الأمر حتى الآن محصوراً بـ "يحيى بك" وقد يشكل حالة خاصة، فهناك حديث آخر عن الإسراف العام في تناول الطعام، ويصف "حسون" أحد فقراء أرض السواد

---

(5) أرض السواد ، ج٣، ص١٩٩.

(6) انظر: إبراهيم صالح، أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمن منيف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٤م. ص ٢٦- ٢٨.

(7) أرض السواد، ج٢، ص٤٨٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

حالة من تلك الحالات: "أكل ... أكل ... واللحم كومات، كومات، تشبع أهل بغداد بالصوبيين... ويزيد ...مين العازم ومين المعزوم؟"[٨].

إن المتتبع لرؤية ريتش في أرض السواد يلاحظ أن الشرقيين يسرفون في تناول الطعام الدسم إذ يقول ريتش: "لو قدّر لأي خنزير أن يتناول هذه المقادير من الأطعمة، ومن هذا النوع لقضى قبل طلوع الفجر ... على سكان هذه البلاد أن يفاوضوا سكان القطب: أن يتم تناول الأمكنة أو تبادل الأطعمة ويقول حسون وهو متهلاً منشرح الصدر أقرب الى الى الطرب: أكل..أكل..أكل، واللحم كومات، كومات، تشبع أهل بغداد بالصوبين..ويزيد[٩].

- الغناء والرقص:

نسمع أولاً في أرض السواد صوت أبي منعم البطئ، الذي لا يعلو إلا قليلاً، يبدو للسامع كأنه أتٍ من بعيد، من شجن تلّونه الكلمات، وتضفي عليه مسحة حزينةً، فيه قَتام يحسه القلب ويتشربه لحظةً بعد أخرى. لقد أشار منيف إلى الكلمات، وإلى أثرها في استنهاض الحزن، وتفاجئنا إذا قرأنا بعضها أنها لا تحمل حزناً من حيث معناها فحسب بل تعبّر حقيقةً عن حالةٍ أقرب إلى الفرح:

هذي يا صاح أوقات الهنا وبلوغ النفس أقصى الأمل

جمعت من كل شيء أحسنا لذة في غيرها لم تكتمل

أما الصوت الأخر الذي نسمعه في أرض السواد فهو صوت ثامر المجول "النغم الذي يُذيب الحجر ويحرك أحزان الروح ... يغني ثامر المَجُول لنفسه: يذوب وجداً، يتحول إلى

---

[8] أرض السواد، ج١، ص٥١٦.

[9] نفسه، ج١، ص٣٩٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

خيطٍ من النور، إلى غيمة من الحنين، وشيئاً فشيئاً يصبح الوجدُ نحيباً رقيقاً، وندباً موصولاً وكأنه على وشك أن يغادر هذه الدنيا فور انتهائه من الغناء"[١٠].

يتفاعل ثامر المجول مع غنائه بشكل تصاعدي حتى يصل في آخر المطاف إلى قمة الوجد وإلى ذروة الحزن، ويفاجئنا عندما يغني في احتفالات النصر، فنتوقع فرحاً في غنائه، لكنه بكى وأبكى الحضور في القاعة، وسُمِع شهيق عدة نسوة، أما الزفرات التي صُعِدت من أعماق القلوب فكانت تتزاحم إلى درجة تَصَدُّعِ الصدور وتفجر الدموع.

ينطلق منيف من حزن المغني إلى حزن المستمعين، هم الناس، كل الناس في أرض السواد، يحكى عنهم بلغة الجمع، ولا يحدد شريحة أو مجموعة، إنهم الجميع. فالغناء من هذا المنظور وسيلة تعبير اجتماعية واضحة، تُظهِر ذلك الحزن المكدس في النفوس، إنه بكاء محزون، تفجره صرخة ألمٍ أو نغم شجي، والمغني يغني فعلاً هذا الحزن "فيرجع الصدى كأنه النشيج"[١١]، فهل هو الحزن العراقي العتيق؟ حزن الطوفان والفقر وكربلاء، وظلم الحكام على مر السنين، إنه حزن لا يرتبط بحدث آنيٍ موجود في الصدور يطفو سريعاً على سطح المجتمع العراقي، هو على بعد آهةٍ من الحناجر وعلى بعد دمعةٍ من العيون .

يحاول ريتش أن يصف هذه الحالة في أرض السواد حيث يرى أن الألحان حزينة ورتيبة، وأن المغنين يوصلون بين أشطر الأبيات بالنحيب، وينهونها بالشهيق، وأغنياتهم تخلو تماماً من الفرح، وتصبح كالعويل، كما يلاحظ "مدى الحزن الذي يكتنزون به والذي يلفهم من قمة الرأس إلى أسفل القدمين، وهو يفاجأ بالرجال الذين يبكون بصمت، ولا يخجلون إذا سيطر عليهم المغني وجعلهم يشعرون بالحزن والشجن.

---

[10] أرض السواد، ج١، ص٣٦٩.

[11] بدر شاكر السياب، ديوان السياب، بيروت، دار العودة، المجلد الأول، ١٩٧١، ص٤٧٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إنّ ريتش كغيره من الغربيين الذين يحاولون الوقوف علـــى دلالات تلـك الظـــاهرة واضعين أصابعهم على بعدها الاجتماعي العام، فهم يلحظون بوضوح أن الحزن ينتقل عبـــر الغناء كالعدوى من المغني إلى المستمعين، وأن الأمر يتم بسرعة وبساطة وسهولة، فلم يبـــدُ الغناء في هذا العمل إلا وسيلة تعبير جماعية عن حـــزن حـــارق تختزنـــه صـــدور النـــاس جميعهم(١٢).

ويكتمل هذا الغناء على مستوى التعبير بالرقص، فنجد منيف يصف مشهداً واحداً من مشاهده، فيلقى الضوء على بعده الاجتماعي، والفردي المتصل بالمجتمع في آن واحد.

لقد اُقتطف هذا المشهد من احتفال اُقيم في بغداد بُعيدَ انتصار قوات داود على البـــدو، حيث "كانت كل واحدة من الراقصات أجمل من الثانية، وأكثر مهارة من التي ســـبقتها، جـــاء دور الأخيرة نجمة، فاختلف الأمر تماما، لم يستطع قائد الجيش عليوي وكبار ضيوفه الاحتفاظ طويلاً بالجدية، تقدم طلعت ياقة، وهو من كبار الضباط، فمسح العرق عن جبينهـــا بمنديلـــه وجُنَّت القاعة، دوّى الصفيق والتهبت الأيدي ... بالإضافة إلى جمالها، تتمتع بقدرة باهرة، فقد كانت تنفعل، بل وتغيب وهي تؤدي الحركات، كان جسدها يضيء ويتلوى، رغم المرونة التي تصل إلى حد الإعجاز، وهي تحرك ذلك الجسد، بحيث يبدو أقرب إلى جسد الحية ... كانـــت حبات العرق وهي تتدحرج من الجبين ... تتحول إلى كرات من اللؤلؤ"(١٣).

تلك الحماسة التي عمَّت الجميع وخصوصا ردة الفعل الجماعية إزاء الرقص، إنها ردة فعل الرجل إزاء جسد امرأة جميل يتلوى، إنهم يعبِّرون من خلالها عمَّا هـــو مخـــزون فـــي صدورهم، قد يكون الحرمان العتيق، والمشهد حي واضح يتحرك أمامهم، تدهشهم فيه امـــرأة

---

(12) إبراهيم صالح، أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمن منيف ، ص ٤٦.

(13) أرض السواد، ج١، ص٣٦٥.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

جسدها طيِّع، ترقص وتدور، وتُظهِر مفاتنها متحركة، ضاجّة بإتقان، وهم يصفقون من حولها، تفارقهم جديتهم.[١٤]

أما ردة فعل النساء فهي معاكسة تماماً لردة فعل الرجال، لقد رفضن بعض حركات الرقص، وانتقدن ملابس الراقصة التي تُظهر أكثر مما تخفي، واستنكرت حركات الرجال التي وصفنها بالخفة وعدم المعرفة.

نحن إذاً أمام ردتي فعل متناقضتين، يفرح الرجل بالجسد الراقص الجميل، وتكره النساء احتفاء الرجال بذاك الجسد، ولا يلتفت أحد منهم، جميعاً إلى الرقص من حيث هو فن[١٥].

فالرقص يعكس سلوكاً نمطياً واضحاً، المرأة جسد يُعرَض على الرجال فيربكهم، ويثيرهم، ويخرجهم عن أطوارهم، أما نجمة "فالأمر مختلف تماماً، ظلّت وحيدة عندما رقصت، رقصت وهي لا ترى أحدا، كأنها ترقص لنفسها ولحبيبٍ تتخيله دون أن تراه، كانت ترقص في بعض اللحظات وكأنها تتعبد، أو تقدم طقساً مقدساً، تعبِّر نجمة بهذه الطريقة عن غربتها ووحشتها ووحدتها، والناس من حولها ينظرون إليها ويصفقون، تتوحد مع ذاتها عبر الرقص تبحث عن نصفٍ آخر لهذه الذات فلا تجد، تغمض عينيها، وتعلن العزلة النهائية في غابة الرجال، يجب أن لا تنسى إنها من بنات روجينا، بائعات الهوى، وتقدم الرواية تلك البنات معظم الأحيان، ضحايا لمشكلات اجتماعية، ولنظرة الرجل إلى المرأة[١٦].

فالرقص والغناء في رواية منيف هو باب من أبواب التعبير عن المشاعر الجماعية عن بعض المواقف الاجتماعية، ينطلقان أولاً من الفرد ليشملا دائرة واسعة تخص المجتمع

---

(14) نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، وزارة الثقافة، عالم الكتب الحديث، اربد، ٢٠٠٦م، ص٢٣٠.

(15) إبراهيم صالح، أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمن منيف، ص ٤٧.

(16) نفسه، ص ٤٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بعامة، فيحكي الرقص حينها عن خلل في معنى المشاركة والتفاعل بين الرجل والمرأة، كما يحكي عزلة النساء اللواتي سقطن تحت ضربات المجمع القاسية، ويُشرِّع الغناء أبواب الحزن لكل الصدور والقلوب المعذبة.[١٧]

- الحزن الجماعي:

جاء الحزن في هذه الرواية حزناً عاما لينال من الجميع، وإن ارتكز إلى سبب آني وجيه يتكشف وتتسع دائرته ليشمل شعباً بأكمله، وقد نردُّ هذا الحزن العام إلى التاريخ والمكان، فقد يكون حزن الصحراء، أو حزن النهر الجامح على السواء، وقد يكون نِتاج القهر والقمع والإذلال، أو إنه حزن الهزائم والأحلام المستحيلة، أو حزن الحرمان والسقوط الاجتماعي المرير.

يحزن الفقراء أكثر من غيرهم، إنهم في رواية منيف مسحوقون مظلومون، لا يمكنهم -وهم على هذه الحال- أن يسهموا في دفع المجتمع إلى الإمام، فالحزن هو تعبير عن خلل ما، نرى ما يماثله في الصراع الطبقي البارد أو العنيف، يكمِّلُ من هذا المنظور ما قد تَحكي عنه أحوال العيش الأخرى، وما قد توحي به المرأة عبر مواقعها الاجتماعية وعبر النظرة إليها.

الحزن في أرض السواد يفجره حدث معين، لكنه لا يبقى لصيقاً بهذا الحدث، إذ تتسع دائرته ليشمل الجميع، يتعدى الحدث ولا تظهر أسبابه الحقيقية المخبوءة بشكل واضح[١٨]، فقد فجَّر مقتل بدري -وهو ضابط في جيش داود باشا- الحزن كبراكين في تلك الرواية، يقول

---

(17) إبراهيم صالح، أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمن منيف ، ص٥٠.

(18) عبد الكريم العلاف، بغداد القديمة، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٩٦م، ص٢١٢،

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الراوي: "إن أم قدوري التي كانت تطفو على بركةٍ من الحزن، كانت تبذل جهداً محدودا لكي تؤجل الغرق، وجدت بموت بدري النتيجة لتبحر نحو الأعماق القصية في البركة التي كانت تطفو عليها"[١٩].

ومثلها فعل حسُّون صديق بدري، أبحر عبر البكاء إلى عباب الحـــزن اللامتنـــاهي، "يصرخ حسون بحرقة لخاطر الله، خليني أبجي(أبكي) أبرّد فؤادي ... أريد أطلّع اللي بقلبـــي لأن اللي راح مو قليل، ما يتعوض... اويلاخ... ليش سويتها بينا بدري، ورحت؟"[٢٠].

صار النحيب بعد ذلك بوابة الحزن المشرعة للجميع، بكت الناس ولم يتوقف أحد عن البكاء طوال الليل، "كانوا يبكون ويعانقون بعضهم كعشاق، كبشر يائسين"[٢١].

أما فطيم –زوج سيفو– فتريد إلى جانب البكاء والتساؤلات أن تعرف ماذا حدث، كيف مات بدري، ولماذا؟ وبعد معرفة بعض التفاصيل تعود فطيم إلى الندب مرددة:

صدركْ خازنْ علمْ الباريْ وترابْ الميـــدانْ يعفـــركْ
وشـــلونْ بـــدمكْ تتحنّـــى شلونْ الخيلْ تهشّمْ صدركْ
ربيتكْ وها اليـــومْ يومـــكْ وحقيْ منْ أعتبْ ولومـــكْ
يا وليديْ منْ تعثّرْ جـــسمكْ وما لقيتْ يَمّكْ حـــدْ يلمـــكْ
جروحكْ عيونيْ ودموعيْ كيفْ تعيشْ بعدكْ أمّـــكْ[٢٢]

---

(19) أرض السواد، ج٢، ص٣٠٦.

(20) نفسه، ج٢، ص٣٠٣.

(21) نفسه، ج٢، ص٢٨٩.

(22) نفسه، ج٢، ص٣٠٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يتضح لنا من خلال هذا المشهد، أن الحزن قد تخطّى سببه الآني، فمقتل بدري صار على علاقة بالمكبوت النفسي الجماعي، إنه أشبه بالطقوس التي تمارسها المجموعة بشكل متكامل، كأنّه مدروس مسبقاً، إن هذا البكاء المتواصل وذلك العناق للتعبير عن الحزن يشير إلى إنه لا يمكن أن يكون ناتجاً كلياً عن السبب الآني، لقد حفّزه هذا السبب، فانطلق إلى أعمق منه، إنه الحزن الدفين.

- **الزواج:**

يبدو داود الباشا مِزواجاً، مِطلاقاً، وهو يحتفظ دائما بأربع نساء، لكنه يضطر إلى طلاق واحدة منهن، كي يَعقد على جارية حملت منه لأجل الولد، ويطلِّق أيضا المرأة التي لا تلد إلا البنات، وقد يطلِّق لاختلاف المزاج بينه وبينها، أو في لحظة الغضب، يدخل على الجارية على الرغم من نسائه الأربع الشرعيات، ويطلق امرأة من نسائه لأجل الولد.

أما نائبه يحيى بك فهو دائم البحث عن "اللحم الحي، شرط أن يكون على سنة الله ورسوله، كما يقول، ومعنى ذلك أن يتزوج امرأة جديدة، بعد أن يطلق واحدة من زوجاته القديمات، لئلا يزيد ما عنده على أربع! لكن كثيراً ما يخطئ الكيخيا في الحساب، وكان شمسي أميني، نائب المفتى، يجد له فتوى مناسبة، تكون في أغلب الأحيان بإطعام عدد من المساكين"[٢٣].

يدل ما ذكرنا أن النساء كمٌ لا ينظر إليهن إلا للمتعة الجنسية فقط، ولا يقيم الرجل عندما يتعامل مع المرأة على هذا النحو أهمية لكرامتها الشخصية، ولكيانها الإنساني ولا تُحدث زوجة جديدة أو امرأة تُطلَق خللاً في حياته أو في أُسرته، أيمكننا أن نحسب كل هذا

---

[23] أرض السواد، ج٢، ص٤٨٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

زواجاً؟ أو أن الأمر هو مجرد تكديس للنساء في سبيل إشباع رغبات ملتوية؟ أناتج هذا عن نهم أو حرمان، أو رغبة في ترف جاهلي[٢٤].

زواج بدري من زكية في الرواية مثال واضح على الزواج الاجتماعي الذي تتعاظم فيه أدوار الجميع إلا دور العروسين، حيث بدأت الحكاية باستجابته لرغبة العائلة في الزواج بعد إلحاح عظيم، بعد ذلك النشاط المحموم لاختيار عروس تناسبه، شاركت في هذا النشاط العائلة بأكملها، إذ "تريد العمة زاهدة أن تتحقق من نظافة بيت العروس فما أن تجد فرصة سانحة حتى تقلّب الأغطية، تتشمم الوسائد وتنظر تحت السجاد والمقاعد لتقدر مدى النظافة، كما أنها تطلب أن تتوضأ، لتتاح لها الإمكانية أن تجوس في البيت، وتتظاهر بالخطأ حين تفتح بابا مغلقا لترى وتتأكد من كل شئ![٢٥]، كما تريد كي تحكم " نريد انشوف البنية، بليا صبغ، وبليا شناشيل، نشوفها مثل ما خلقها رب العالمين"[٢٦]، "ويريد الأخوان: قدوري، ونعيم، لأخيهم واحدة تزيد الخير ما تنقصه ،بنت عائلة، أبوها معروف بالسوق، شبعانة، وما بعينها شي! أما بنت قصّاب، بنت حايك أو نجار، فالواحد ما يتزوج مرية، يتزوج عشيرة، وتعال اخلص!"[٢٧]."واستمر البحث أسبوعا هذي طويلة، هذي قصيرة، وهذي أُمها تخلف ولد ، وهذي أُمها تخلف بنات"[٢٨].

أمَّا العائلات التي تزورها عائلة بدري للبحث عن عروس له فكانت تعرف سبب الزيارة الحقيقي، لكنها تنكر ذلك إنها "لعبة يمارسها الطرفان بإتقان وبراعة وكل طرف يعرف

---

(24) إبراهيم صالح، أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمن منيف ، ص١٥١.

(25) أرض السواد، ج٢، ص١٦٦.

(26) نفسه، ج٢، ص١٧٩.

(27) نفسه، ج٢، ص١٦٩.

(28) نفسه، ج٢، ص١٧٥

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هدف الآخر إلا إنه ينكر هذه المعرفة"[٢٩]، وقد تم اختيار زكية أخيراً ووافق بدري، والتقى بها لأول مرة ... كي يتعرف بمن سيصبح زوجها وتذكر أنه رآها مرة أو اثنتين حين كانت صغيرة"[٣٠]. ويرضى بها وترضى به ولكنَّ الزواج لا يتم.

ولا نستطيع أن نكتشف موقف منيف الحقيقي من هذا الزواج التقليدي، هل يوافق عليه؟ هل يراه ناجحاً؟ هل يَحكمُ عليه بالإخفاق في ما بعد؟ ولا ندري لماذا حَبَكَ هذه الحكاية رغم مقتل بدري قبل أن يتم الزواج، ففوت علينا قراءة موقفه بشكل واضح.

ربما أرادنا أن نبني موقفاً ما، ارتكازاً على ما ورد من وقائع، لا يعرف بدري وزكية بعضهما حق المعرفة، وكان هو خارجاً لتوِّه من قصة حب فاشلة، حبه لنجمة، واختارت العائلة زكية، ووافق بدري دون تردد. لقد صوّر منيف بشكل دقيق السلوك الاجتماعي إزاء الزواج من خلال هذه الحكاية، وأوضح تماماً اضمحلال الموقف الفردي للعروسين، مقابل تعاظم الدور الاجتماعي الذي يُسوِّغ العملية برمتها وترك الحكم للقارئ أو للباحث .

- المرأة:

إن خطورة هذا الأمر تكمن باقتناع المرأة بضعفها وحاجتها دائماً إلى الحماية والرعاية، إذ نجد هذا لدى فطيم زوجة سيفو، عندما تحدثه عن موقفها منه وعلاقتها به، "قلت لروحي لما تزوجتك: صار لي رجَّال خيمة، ظِل يكلكل عليَّ، وما راح أخاف من شيء أو من أحد"[٣١]. ولأنها ضعيفة وبحاجة الرجل دائما ليحميها فإننا نجدها ترسم حدود دورها في المجتمع وتبقى دائماً تحت عين الرجل يراقبها خوفاً عليها.

---

(29) أرض السواد، ج٢، ص١٦٦.

(30) نفسه، ج٢، ص١٨٥.

(31) نفسه، ج٢، ص١٦.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

لا يسمح الأباء والأزواج والأخوة للنساء بالخروج إلا لزيارة الأهل والمقامات الدينية، بسبب الخوف عليهن، ويشير الخوف عليهن إلى افتراض الضعف والحاجة الدائمة إلى الحماية[٣٢]. تصاحب هذا الافتراض صفات يقررها المجتمع،يجب على المرأة ان تتحلى بها، حيث توصي امراة ابنتها، وهي تَهِمُّ بزيارة من اُختيرت لتكون زوجة: بألّا ترفع رأسها ولا تضحك، وأن تُجيب إذا سُئلت بأقل الكلمات، وبهذا تتأكد أم العريس نفسها أن هذه الفتاة بالذات ستكون زوجة مثالية لابنها، لأنها ضمن الأوصاف التالية: "طويلة، عيونها وسيعة، بيضاء، مشيتها زينة، وإذا الواحد سألها،حجى(حكى) وياها، ما ترفع عينها، وما تقول إلا: بلى عمَّه"![٣٣].

يوضح النص السابق الصورة المثالية التي يرسمها المجتمع للمرأة، يجب أن تكون جميلة أولاً، بعد ذلك يجب أن تخضع لنقد قريبات العريس، ولا تواجه حتى في أثناء الكلام مع غيرها، عليها ألّا ترفع عينها أو رأسها بمن يحادثها، وتقتنع النساء أنفسهن-غالباً- بهذه الصورة للمراة، يخضعن للرجل، ويسلِّمن بضعفهن، وبعدم قدرتهن على بناء شخصية مستقلة، ولكن تبرز في هذا العمل بعض النساء اللواتي ينحرفن عن القاعدة، فيعبرن عن أنفسهن بطرق ملتوية[٣٤].

يقرّ داود باشا نفسه بأنّ للنساء قوة عظيمة لا تتأتى للرجال أحياناً، لذلك فكّر في الاستعانة بهنّ للوصول إلى أحد أعدائه المختبئين، بعدما أخفق رجاله في هذه المَهمَّة "قلت لي:

---

(32) عزيز جاسم الحجية، بغداديات: تصوير للحياة الاجتماعية والعادات البغدادية خلال مائة عام، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٦٧م، ص٦٠.

(33) أرض السواد، ج٢، ص١٧٠.

(34) إبراهيم صالح، أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمن منيف ، ص ٥٩.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

عن طريق روجينا نصل إلى ساسون، ونخن ثأرنا مع ابن هالحرام، فاترك المسألة عليّ، اتفقنا؟"[٣٥].

- **المرأة والجنس:**

إن ما لاحظه (المسترهايني) مساعد القنصل البريطاني في أرض السواد، حول اهتمام الناس الزائد بالجنس، حيث يرى هايني أن الجنس بالنسبة لهم شيءٌ مقدس، شيء ضروري لبقائهم، ويبالغون إلى درجة تستدعي التفكير والتساؤل، يفعلون ذلك ليس بدافع الحرمان ، وانما نتيجة أسباب أخرى، ربما يحاربون الموت بهذه الطريقة، وربما يريدون مقاومة الفناء.

ويؤكد سيد عليوي عبر سلوكه الجنسي ما لاحظه هايني، ويصف أحدهم طلعت بك أحد كبار الضباط، من هذه الناحية فيقول: "له ثار ويا كل مريَّة يلزم وحدة ويهد وحدة، وأبد ما يشبع، وما يندرى شراح يسوي باجر(باكر) واللي عقبه إذا... أو ما لقى بنت سبعطش"[٣٦].

ويعبّر نائب الباشا يحيى بك أيضا عن موضوع الجنس ويوليه اهتماماً عظيماً، ويستعين بالشيخ محب الدين مرادي، لتجديد حيويته ونشاطه، ولا يبخل عليه الشيخ بعلمه، حيث يصف له وصفات عجيبة يزعم أنها تعين على الحياة ينصحه على سبيل المثال، بأن يجفف "خواص العجول" ويسحقها، ويستفّها، وينصحه أيضاً بتجفيف ذكر الثور ويسحقه، وبأن يضع منه قدر حمصه مع شراب أو لبن فيشربه.

وقد يقودهم هذا الهاجس أحيانا إلى الشذوذ الجنسي حيث يمارس سعيد باشا على سبيل المثال الشذوذ، وكان والي بغداد يهجر كل النساء ويلزم حمادي، فيقول عنه سيد عليوي بعد

---

(35) أرض السواد، ج١، ص٢٠٥.

(36) أرض السواد، ج٢، ص٣٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

قتله: "الدنيا كلها ما جانت(كانت) توسعك ... وحتى الونسة ما تعرف تتونس، تارك الدنيا وعابد... حمادي الخايس، لك البنات القمريات، بنات الستعطش، والسبعطش، الكرجيات، وبنات اسطنبول البيضاء والشقرا، ولاحق ابن الزفرة حمادي..."[٣٧]

- المرأة البغي:

تتسع زاوية النظر في أرض السواد إلى البغاء، فتتشابك معطياته مع السياسة والجاسوسية، وتبرز مآسي النساء اللواتي انحرفن إلى هذا السقوط الاجتماعي.

تهتم روجينا المرأة الأكثر خطورة في هذا الميدان بالسياسة، ويستغلها الرجال للوصول إلى أهدافهم السياسية، فقد استغلها القنصل البريطاني مثلاً، لتكون وبناتها صلة وصل بالسيد عليوي ، عندما كان في الشمال يحضّر للانقلاب على داود باشا، كما أراد سيد عليوي نفسه الوصول إلى أحد كبار التجار الأعداء عبرها شخصياً، "لم يترك السيد علوي لرجاله الاتصال بروجينا، ذهب إليها بنفسه، روجينا فوجئت بالزيارة"[٣٨]. وتُظهِر الرواية بشكل عام أنها وأمثالها يعرفون كل شيء بالولاية، ويعرفون الناس على البطانة، وهذول ما يجون بالعصا، يجون بالمال والمرحبا"[٣٩].

تكشف الرواية -إلى جانب تلك القدرة على الغوص في الأمور السياسية- عن حياة تلك النساء، المؤلمة القلقة، وعن النظرة الدونية الموجهة إليهنّ، وتعبّر حكاية نجمة بوضوح عن تلك الحياة الصعبة، وعن ذلك الخلل الاجتماعي الرهيب الذي أنتجها ثم أنتج أسلوب التعامل معها"[٤٠]، إنها جميلة، صغيرة، مشتهاة، لكنها حزينة، أحبها بدري وهو ضابط، أحبّ

---

(37) أرض السواد، ج١، ص٤٦.

(38) نفسه، ج١، ص٢٠٧.

(39) نفسه، ج١، ص٢٠٥-٢٠٦.

(40) إبراهيم صالح، أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمن منيف، ص ٦٦.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

فيها ذلك البهاء، رآها فراشة تقفز وتطير فتتجلى روحها مثل خيوط النورَّ وخُيِّلَ إليه أنه يستطيع أن يتزوج بها ويعيش معها سعيدا، عبَّرت بعد ذلك ردود الأفعال إزاء هذا الحب، عن حقيقة الخلل الاجتماعي المرتبط ببائعات الهوى، يقول سيفو صديق عائلة بدري لنفسه: "ما أكون سيفو إذا ما خليته يجوز من ...، كما ويسخر الضباط مرافقوا عليوي: "وروجينا تسلِّم عليك..."[٤١]، وغيرها من السخريات ، ويأتي تأنيب الباشا نفسه: "لن أترك لعليوي ورجاله أن يسخروا مني ومن رجالي، ولن أسمح أن تكون أخبار السراي في دور البغاء"[٤٢].

وانتهى حب بدري لـ نجمة ثم قرر الزواج بغيرها، ولم يستطع المجتمع أن يمنحها فرصة إنسانية تعود من خلالها إلى إنسانيتها التي هُدِرت. صارت الأمور تتبدى لبدري بعد ذلك من زاوية ثانية، أصبح يرى شقاء تلك النساء من خلال رؤيته لحزن نجمة وشقائها وضياعها، "بدت له أولاً وحيدةً، تماماً على الرغم من وجود الكثيرين من حولها، ثم رآها حزينةً، عيناها تحاكيان حزنا قديماً، يضاف إليه حزن جديد كل يوم"[٤٣]. وتكالب عليها الرجال والعسكر، لأنها جميلة ووحيدة وضعيفة وضائعة، وأُمتُهِنت وسُحِقت كرامةُ جسدها وروحها ثم قُتِلَت، قُتلت في بيت ضابط كبير كان محتفظاً بها لنفسه، لكنَّه لم يوجِّه الاهتمام لأحد. وعلَّق كبير الضابط عليوي على هذا الحديث بكلام واضحٍ وصريحٍ "تحمد ربها هالخايبة، لأنها لقت مكان تتدفن فيه"[٤٤].

استطاع بدري وحده أن يضع أُصبعه على النكبات الاجتماعية التي يمكن ان تؤدي إلى البغاء، فهو يفترض ويتساءل: "بنية وفقيرة وحلوة، وتموت أمها، ويتقرم أبوها، وتكون

---

(41) أرض السواد، ج١، ص٤٩٣.

(42) نفسه، ج١، ص٤٩٧.

(43) نفسه، ج٢، ص٤٥.

(44) نفسه، ج٢، ص٢١٥.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

أكبر الأخوة، وماكوا بالبيت فد شي، فشلون تقدر تنزع العظمة من حلق الكلب!"[٤٥]، إنه يشير إلى المأساة الاجتماعية المتمثلة بالدعارة، لا ينظر إلى الأمر من حيث هو خطيئة امرأة، كما نظر إليه غيره خصوصا عليوي، وطلعت بك، الذي كان هذا الأخير قبل مقتل نجمة بأيام، أو ربما بساعات يلهث فوق صدرها!.[٤٦]

ولعله ليس من الخطأ أن نقول إن الروائي ربما قصد إلى أغراض تشويقية من خلال شخصية هذه المرأة، ولعلَّ الفقرات الجنسية المنبثقة في الرواية تسهم في تخفيف رتابة المواضيع السياسية الذي تناقشه، وتعود بالقارئ بين فترة وأخرى إلى النواحي الإنسانية العاطفية[٤٧].

إن نجمة من هذه الزاوية تذكِّر بنفيسه في رواية (بداية ونهاية) لنجيب محفوظ، عندما تنزلق إلى البغاء نتيجة الحاجة والخديعة، ومخيبات الأمل، فتعاقب نفسها، ويعاقبها العرف الاجتماعي وينجو مَن ورَّطها وأضعفها"[٤٨]، فالبغاء مؤلم، يشير أولا وأخيراً إلى ضعف النساء اللواتي سقطن في حفرة مظلمة، ويشير إلى ضعف المرأة بشكل عام، وإلى نظرة المجتمع إليها، الذي يعمل على اضعافها، فإذا ما سقطت فإنه يحطِّمها، ولا يمنحها فرصة واحدة لترميم ذاتها والخروج من دائرة الضياع. ويحتقر الرجال هذا الصنف من النساء، وينامون معهن: يخونون زوجاتهم مع نساء يحتقرونهن تماماً، ولا يكفُّون عن الكلام على النساء والجنس والشرف والخيانة والعفة والزواج والفضيلة والرذيلة، ويريدون أعلى مراتب العفة لأمهاتهم وزوجاتهم وأخواتهم وبناتهم ويهبطون إلى ما يسمونه الرذيلة، ويستمدون

---

(45) أرض السواد، ج٢، ص٢١٢.

(46) إبراهيم صالح، أزمة الحضارة العربية، ص ٦٨.

(47) عيسى نوري قويدر، عبد الرحمن منيف روائياً، ص ١١٧.

(48) انظر: نجيب محفوظ، بداية ونهاية، ص٢٤٤-٢٥٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

شرفهم من عفة نسائهم، ولا يضير هذا الشرف أن يلهث صاحبه خلف بغي، والمرأة وحدها ضحية تلك التجاذبات، وقد لا يخرجها من دوائرها الزواج نفسه[٤٩].

٢- الحياة الدينية في رواية أرض السواد:

- رجال الدين:

تفرّق بعض الشخصيات في رواية منيف بين رجال الدين وسلوكهم، فهي تميز أولًا بين رجال الدين الأتقياء، والآخرين التجار أصحاب المصالح الشخصية. وتشن حرباً بعد ذلك بأساليبها المختلفة على السيئين منهم، إذ يقول داود باشا نفسه عن رجال الدين: إنهم "كورة زنابير، تشوف الواحد، اسم الله عليه، لابس كشيدة، ولسانه ما يفوت حلقه، وهو يردد، قال الله وقال الرسول، تقي، ورع، يصلي ويصوم ...لكن إذا سألت عنه...من هو وشنو مسوي بدنيته، تشوفه زنبور أبد ما يخرى عسل "[٥٠].

يلح داود باشا على قلة نفعهم للناس، إنهم فقط للكلام، يوهمون الناس بأنهم أتقياء أنقياء، وهم لا يمارسون ذلك إلا على المستوى النظري[٥١].

وفي موضوع المال عند هولاء الرجال فإن الملا حمادي في أرض السواد خير من مثّل رجال الدين المتهالكين على المال، إذ يَظهر ذلك من خلال وجهات نظر الشخصيات الأخرى في الرواية وخصوصاً سيفو، فهو يؤكد بدايةً أن دين الملا حمادي هو اللي يسوّي فلوس، اللي يلقف الطير بكبد السماء والسمجة(السمكة) جوّاً المي، ودائما عنده الحُجة: قال الله وقال الرسول، ولازم تقول أي نعم، تمام. وإذا قلت لا، أو ليش، انت كافر، انت فاسق، انت

---

(49) إبراهيم صالح، أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمن منيف، ص ٦٨.

(50) أرض السواد، ج١، ص٢٤٧.

(51) إبراهيم صالح، أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمن منيف، ص٩٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

مو خوش آدمي"[٥٢]، ويؤكد سيفو ثانية، أن الملا حمادي حيَّال ما يعرف الحلال من الحـرام، الفلس ربه ومعبوده، مثل اليهود وأكثر من اليهود"[٥٣].

وقد لا تكون هذه ذروة الاتهامات، ولا يخشَى سيفو الملا حمادي إطلاقاً، وكلامـه علية ليس غيبة فقط بل يواجهه به يهدِّده بوضوح " اسمع ملاَّ...لا تجمع ولا تشحذ فلوس باسم الفقرا وتنام عليها، والفقرا ما يشوفون هذه الفلوس لا بشلك، ولا باره"[٥٤]، يريد سيفو منه ألَّـا يسرق الأموال باسم الفقراء، ومن ثم أموال الفقراء أنفسهم، ولكنه لايتـورع عـن محاولـة التحرش بأمواله، لقد سأل عنها الحاج علاوي الملا حمادي الذين كان لـه الكـلام القاسـي الجارح: " ليش لاحقين هذول المساكين الفقرا، اللي يكربون من الفجر إلى مـا بعـد غيـاب الشمس"[٥٥].

يدعي رجال الدين في رواية منيف أنهم يمسكون بزمام الدنيا والآخرة وبأنَّ الطريق القويم إلى الخلاص تمر حتما من بين أيديهم، ولا تنطلي تلك الأوهام على كـل الشخـصيات أمثال سيفو وهوبي، إذ يُسوِّغ سيفو في الرواية هجومه على الملا حمادي بقوله: "قاعد الناس سكينة خاصرة: حلال حرام، جهنم، ونار الله الكبرى ...الموت ينتظر ... شنو ما عنده غيـر هالسالفة"[٥٦]، كما يرفض علانية أن يُنصِّب الملا حمادي نفسه قيِّمَاً على مدخل الجنة والنار، ويريد منه أن يترك هذا الأمر وأن يكف عن تذكير الناس دائما بالموت.

ما يلاحظه سيفو ثم يرفضه، يلاحظه خاتشيك الأرمني، ويرفضه أيضا، ويعبر عن رأيـه فيه بحدة وقسوة: "ماكو أنجس من الانجليز إلا هذول رجال الدين، مسوين حالهم حراس الجنة

---

(52) أرض السواد، ج٢، ص٤٧٨.

(53) نفسه، ج١، ص٤٦٣-٤٦٥.

(54) نفسه، ج١، ص٤٦٥.

(55) نفسه، ج٢، ص٤٨٢.

(56) نفسه، ج٢، ص٤٧٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والنار، هذا يصير وهذا ما يصير، وكأن مفتاح الدنيا والآخرة بخزامهم، هذا حلال وهذا حرام ...ما يدرون أن الله مو قشمرة وأنه يعرف كل شيء ويشوف كل شيء"[٥٧].

ما يرفضه سيفو واضح تماماً، إنه سلوكهم الديني المتعالي، وتنصيب أنفسهم حراساً للجنة والنار، يرفض رجال منيف هذه المصادرة للعقل، ويرفض تفرد العلماء وحدهم بفهم الدين، وينطق باسم هذه الشخصيات سيفو موجهاً كلامه لمن يمثل العلماء "اسمع ملا، ما يهمني شلون تقعد، شلون تحجي(تحكي)، ومن اليوم لازم تحجي(تحكي) عِدل... ولا تقرأ على راسي كل ما شفتني، تعال صلِّ، صوم، سبِّح، تصدق هذي كلها أعرفها، وآني أسوي اللي يعجبني وشوكت ما أريد"[٥٨].

- الدين الأخلاق:

لعل سيفو وهوبي في أرض السواد من أبرز الذين يطرحون مسألة الأخلاق من منظور ديني، سيفو كما يفهم الدين بطريقة صحيحة، أنه ليس كما يخبر عنه رجال الدين، فهو "مو بس صوم وصلاة، الدين ...المعاملة، الدين القلب، الدين الحنيِّة، وأن يكون الواحد خوش آدمي، ما يزعل ولا يأكل أموالهم ولا يتقوى عليهم"[٥٩]، إنه منظور سيفو للدين، وهو التعامل الراقي مع الآخرين، وعنصر الأخلاق هو الأكثر أهمية في سلَّمَ القيم لديه، واللافت في فهمه للدين أن الصوم والصلاة لا يكتمل بهما الدين، بل لا بد من أمور أخرى لا تقل أهمية عنهما.

ويكمِّل هوبي فهم سيفو للدين، فيفصِّل القول في من يقيم الصلاة والصوم ولا يراعي الأخلاق، وفي من لا يصلي ولا يصوم، بل يلتزم تماماً بالأخلاق في سلوكه العام، "المسألة، يا جماعة، ما هي مسألة صوم وصلاة، ومثل ما قلنا: رب العالمين هو اللي يحاسب،

---

(57) أرض السواد، ج٢، ص ١٤٤.

(58) نفسه، ج١، ص٤٦٥.

(59) نفسه، ج٢، ص٤٧٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

لكن أريد أن أسألكم سؤال بربكم، بدينكم، بصلاتكم، وصيامكم، شقد اكو بشر ما يقطعون لا صلاة ولا صيام، لكن قلوبهم أسوَد من الفحم، يظلّمون الفقرا، يسلبون اليتامى، وما يخلون مكسورة إلا ويسووها، وشقد اكو بشر لا يصلون ولا يصومون، لكن الحرام أبد ما ياكلون، مو بس هالشكل: ماكو أحد محتاج، ماكو طير أو حيوان، وبليّا ما يحس أحد إلا ويفتحون جيوبهم وبيوتهم ويقولون: ألف هلا ومية مرحبا، وعليك الله تاخذ!"[٦٠]، فقد حسم هوبي وسيفو أمر نظرتهما للدين، إنها محكومة تماما بالمعيار الأخلاقي البعيد عن الطقوس الدينية الشكلية.

ولا يبالغ منيف في تصوير مثل هذه الحالات الدينية المتسامية، إنها نادرة في أعماله، وهو يرتد منها إلى الكشف عن مشكلات معقدة، على مستوى الممارسة الدينية تستدعي التفكير [٦١]، إضافة إلى ذلك يعري منيف أحيانا حالات الكذب والزيف والتزوير المستترة بالدين، ويتهم أحياناً أخرى رجال الدين باستغلال مواقفهم لتحقيق مصالحهم الشخصية.

- الدين والسياسة:

يعرف داود باشا في أرض السواد على سبيل المثال كيف يأخذ الفتوى من الشيخ خالد التميمي ساعة يشاء، لأي أمر يريد، عندما أردا محاربة البدو مثلا "أفتى التميمي بضرورة أن ينهض الباشا لمحاربة العصاة وأهل الفتنة"[٦٢]، واستطاع داود باشا بذلك أن يضفي على حربه صفة الشرعية، ولا يتورع نائب المفتي في الرواية عن تقديم الفتوى المبتكرة لنائب الباشا يحيى بك إذ يخطئ في عدد زوجاته، إنه يحب النساء ويحب إن يجدد زوجاته من وقت إلى أخر، ويصرّ على فعل ذلك على سنه الله ورسوله، لذلك كان عليه أن يطلّق واحدة من زوجاته

---

(60) انظر: أرض السواد، ج١، ص١٤٥-١٤٦.

(61) إبراهيم صالح، أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمن منيف، ص١٢٠.

(62) أرض السواد، ج١، ص ٣١٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الأربعة إذا أراد الزواج بخامسة، وإذا أخطأ في العد، يجد له نائب المفتي الفتوى المناسبة، للخروج من المأزق، وتقتضي هذه الفتوى غالبا بإطعام عدد من المساكين.

إن احتجاج سيفو كان أكثر صخباً، خصوصاً عندما واجه الملا حمادي مباشرة وهدَّده "هذا البيت بيت الله وما يذكر فيه غير اسمه، سمعت، ما أريدك تصعَد تلقلق مثل ما قالوا لك جماعة السراي، سمعت، أفتهمت"[٦٣].

موقف سيفو فيه الكثير من الجرأة والوضوح، يريد من الملا حمادي ألّا يرضخ لجماعة السراي (للسلطة السياسية)، وعدم الدفاع عنهم، وايجاد المسوغات لأعمالهم ولمواقفهم، بل يريد بوضوح فصل رجال السياسة عن رجال الدين.

٣- الحياة السياسية في رواية أرض السواد:

- العلاقات الدولية: داود باشا مع بريطانيا:

التفتت بريطانيا إلى ولاية بغداد كونها مركزاً مهماً على الطريق المؤدية إلى الهند ومحيطها، فأنشأت قنصلية هناك مع ازدياد قلقها من تحركات نابليون في الشرق"[٦٤]، حيث أُتيح لها أن توسع هيمنتها العسكرية، والسياسية في المنطقة، فسيطرت الشركة البريطانية المسماة -شركة الهند الشرقية- على التجارة في العراق، وحققت هذه الشركة امتيازاً تجارياً يقضي بتخفيض الضرائب التي تؤديها إلى الحكومة الهندية إلى ما يقرب٣% في حين كان التجار الباقون وحتى العثمانيون يؤدون ضريبة تصل إلى ٧%، إذ مكّنت هذه الهيمنة السياسية والتجارية ممثل الشركة من التأثير على الباشا نفسه، الذي شذ عن هذه القاعدة ولم يوافق على

---

(63) أرض السواد، ج١، ص٤٦٦.

(64) ماهر جرار، أرض السواد، خضار السرد، العدد٤، السنة ٥٩، بيروت ٢٠٠٣م. ص٥٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

دفع مثل هذه الضرائب التي يعتبرها من حق الناس الذين يحكمهم[٦٥]، حيث كانت سيطرتهم قبله سيطرة كاملة، فهم الذين كانوا يفرضون الباشاوات، وهم الذين يحمونهم، ومن يعجز عن إرضائهم تحولوا عنه إلى غيره، ومثال ذلك سعيد باشا الذي كان بأيديهم مثل الدمية.

تعرف بغداد كلها مقدرة الباليوز وخطورة موقفه، إذ يعبّر أحد أبنائها عن ذلك بقوله: "رأينا مو كل شئ، يا جماعة الخير، المهم رأي الباليوز"[٦٦]، باختصار شديد أصبحت القنصلية البريطانية في بغداد تضاهي السراي، لا بل حاول ريتش أيام داود أن يبقى على نفوذه، وحاول أن يظل حامياً للطوائف المسيحية، واليهودية، وقرر أن يُبهر بغداد والباشا معا بمواكبه المنظَّمة واللافتة للأنظار والأسماع.

قابل داود تلك المحاولات وذلك الإصرار على إحكام السيطرة بإصرار أعظم على استقلالية رأيه وحريته السياسة، فكادت أن تقع الحرب بينهما، استعد الجميع لها، وانطلقت في موازاة ذلك المفاوضات، وضاعفت السراي شروطها؛ تعود مراكب الانكليز إلى ديارها، تُلغى الامتيازات التجارية التي يتمتع بها التجار الانكليز، وتوضع القنصلية البريطانية تحت حراسة السراي، "رفض القنصل البريطاني هذه الشروط، فاشتد الحصار عليه، إلى أن قرر الرحيل أخيراً"[٦٧]. لكنه استطاع قبل رحيله أن يعيق مسيرة داود باشا مدة طويلة، وأن يمنعه من بناء دولته، وعلاقاته السياسية، على أسس تساعده في النهوض، وقع ذلك كله في بغداد وهي ولاية عثمانية، واسطنبول بعيدة عن ذلك كل البعد.

---

(65) انظر: حنا بطاطو، العراق، ص٢٧٢- ٢٧٣.

(66) أرض السواد، ج١، ص٨٩.

(67) نفسه، ج٣، ص٢٧٠-٣٠٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

-العلاقات الدولية: (داود باشا مع فرنسا):

شهدت علاقة بغداد بفرنسا تحولاً كبيراً إثر انهزام نابليون، وبروز بريطانيا كقوة عسكرية بديلة، وترصد أرض السواد هذا التحول وانعكاساته، ففي البداية كانت فرنسا قوية وكان قنصلها يختار والي بغداد، ويعيِّنه، مستغلاً نفوذه في اسطنبول، ثم يرسم سياسته وعلاقته ببقية القوى، ويحدد ما يجب قبوله، وما يجب رفضه، وبعد هزيمتها تراجع هذا النفوذ عملياً، لكنهم ظلُّوا يحاولون العودة[٦٨]، حيث عانت بغداد من هذا الصراع في ظل تلك التقلبات السياسية الدولية، وحال إصرار الغربيين على السيطرة دون بناء الدولة التي كان يحلم بها داود باشا.

- العلاقات الدولية: (داود باشا مع اسطنبول):

اسطنبول ظاهرياً الخيمة السياسية الكبرى التي تغطي بغداد (الولاية)، وعلاقاتها السياسية بأكملها، لكنها تغض الطرف أحيانا عمَّا يدور من أحداث هناك، ويضعف تأثيرها أحياناً أخرى، بحسب موازين القوة العالمية آنذاك.

داود باشا نفسُه استلم فرمان التعيين منها، وظل دائما يعبِّر عن ولائه للسلطان "السلطان في دار السعادة، ائتمننا وطلب منا أن نؤدي الأمانات إلى أصحابها"على الرغم من ذلك هي لا تحمي وُلاتها في بغداد، تريد منهم المال فقط، تطلب ما تستحق وتؤكد أحياناً على ضرورة زيادتها، ورجالُها مثل ملك الموت "عندما يطالبون بالأموال لا يتعبون ولا يشبعون وما عندهم إلا قولة هات"[٦٩]، كانت تضعف ولاتها بهذا الأسلوب، وتقع الولاية تحت عجز مالي أحيانا، وتثقل كاهل الشعب المسدِّد الحقيقي لتلك الأموال والمستحقات، كانت بالإضافة إلى ذلك تعاني

---

[68] إبراهيم صالح، أزمة الحضارة العربية، ص١٦٧.

[69] أرض السواد، ج١، ص٧٩.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

من ضعف على المستوى العالمي وفق اضطرابات سياسية داخلية، وهذا ما عبَّرعنه داوود باشا نفسه: "اسطنبول هسه صارت ألف ملة، وكل وحدة تجر لصفحة"[٧٠]، واختلفت علاقتها مع فرنسا عندما هُزِم نابليون، فعمّقت تلك العلاقة مع بريطانيا، ولكنها عندما علمت بفرار نابليون عن منفاه كشَّرت عن أنيابها وأظهرت كل عدائها لبريطانيا.

- **الباشاوات البغدادية:**

مات سليمان باشا الكبير ونُودي في بغداد باسم علي باشا والياً، فدعا أحمد أغا الناس إلى قتله، وتطورت الأمور بشكل مغاير، حيث قُتِلَ هو شخصيا على يد علي باشا، "ضربه على رأسه بغدارته•، وأمر بتقطيعه، فسحبوه إلى وسط الميدان، وكلٌ يضربه ضربة... كانت نهايته تعيسة"[٧١]، وقُتِلَ علي باشا بعد ذلك، قَتَلَهُ مدد بك "لقد أغمد خنجره في خاصرته، وعُيِّنَ سليمان الصغير واليا"[٧٢] ، ولكن سرعان ما عُزِل وقُتِل وجيء برأسه إلى خالد أفندي، وعُيِّنَ من بعده التوتنجي، فقُتِلَ أيضاً، وعُيِّنَ مكانه سعيد باشا، وقَتله السيد عليوي، وحمل رأسه إلى داود باشا الذي استقرَّ الأمر له أخيراً"[٧٣].

خمسة ولاة قُتِلوا في مدة زمنية لا تتجاوز الخمس عشرة سنة، إذ لم يصل أحد من هؤلاء الولاة إلى سدة الحكم عن طريق سياسي أو ديمقراطي[٧٤]، طريقهم إلى السلطة هي

---

(70) أرض السواد ، ج٣، ص ١٠٢.

• غدارته: حربته.

(71) انظر: أرض السواد، ج١، ص١٦- ١٨.

(72) أرض السواد، ج١، ص١٩.

(73) انظر: أرض السواد، ج١، ص ١٨ – ١٩.

(74) إبراهيم صالح، أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمن منيف، ص١٢٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

طريق العنف والقتل والدم، قد يكون هذا العنف من سمات المرحلة، ليس فقط على المستوى العربي والعثماني فحسب، وإنما على المستوى العالمي أيضاً:

-العنف ميزة أهل الحكم:

يقدم الأغا عليوي مشاهد من العنف تقشعر لها الأبدان، يكفي أن نذكر اثنين منها لتبيان عنفه وجبروته وقدرته على القتل ساعة يشاء، الأول: قَتْلَ سعيد الباشا بطريقة مذهلة، "تسلل إلى القلعة ليلاً وأوهم الحرس بأنه سيخبر الباشا أمراً خطيراً عندما وصل إلى سريره وكان نائماً، استلَّ البلطة(ما يشبه السكين) وضرب بها عنقه وكانت الضربة عميقة، بدا صوتها مثل خبطةٍ في ماء عميق، أتبعها بأخرى، فانفصل الرأس وتدحرج، نظر إلى رجاله، كانت نظرته قاسية وقال: لُفُّوا الرأس، وحمله إلى داود"[٧٥].

الثاني: بعد ذلك بمدة كلف عليوي رجلين من رجاله بقتل الضابط بدري، وعندما نفَّذا المهمة استدعاهما وشهر مسدسه وقتلهما وقال: "اقطع الرأس تموّت خبر"[٧٦].

- مراكز القوى:

- العسكر:

اعتمد داود باشا على العسكر للوصول إلى السراي، وقد اخلصوا له العمل بداية ولكنهم أصبحوا فيما بعد وعلى رأسهم الأغا -سيد عليوي- خطراً يتهدده ويتهدد الاستقرار في الولاية، حيث بدأت حكاية الخطر مع الأغا عندما أحسَّ بأنه لا يرغب أن يكون امتداداً لفكرة أو شخص ما، وخطط لحرب ضد البدو تكون حربه هو، يؤكد قوته من خلالها، ولكي تبدأ هذه الحرب سريعاً، صار يلمِّح لداود بأن البدو يستعدون لها، ثم نشر رجاله لإشاعة أخبار ملفقة

---

(75) أرض السواد، ج١ ص٤٠.

(76) نفسه، ج٣، ص٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

عن هذا الاستعداد بهدف إثارة الخوف في بغداد كلها، وبعد انتصاره على البدو، راوده حلم بأن يصبح مكان داود نفسه، لهذا الهدف زار القنصل البريطاني ريتش مرات عديدة، فاتفقا على إضعاف داود باشا واستنزافه مالياً وزرع عدداً من رجاله في السراي لمعرفة أخبار داود عن كثب، فاكتشف داود نفسه هدف الأغا عليوي، فنقله إلى الشمال دون إعلامه بالسبب وشدد عليه المراقبة، بدأ الأغا هناك يستعد للانقلاب الفعلي، لكنه أخطأ عندما أمر بقتل ضابط مقرب من داود، فاستدرجه الأخير بهدوء إلى بغداد وحاكمه وأعدمه' وبعد أن تعامل مع البريطانيين وهم ألد أعداء الدولة الذين حاولوا إضعاف الدولة وحكامها للسيطرة على التجارة في المنطقة، أصبح الأغا عقبة في طريق داود الذي حاول الاستعانة به لحل معضلات أخرى كمعضلة البدو[٧٧].

- النساء النافذات في السلطة:

في أرض السواد قسمان من النساء: قسم يسكن السراي ويعكِّر صفوها بشكل عام، وآخر يعمل في الدعارة ويعكر صفو المجتمع والعلاقات السياسية أيضا، فنساء السراي كُثُرٌ وكل واحدة منهنَّ "مخيلة على رجال، راد ما راد لازم تنوشه، لازم تصله"[٧٨]، ويؤكد بعض الأشخاص أنه "إذا شاهد الناس بعض ما يجري في السراي في الليالي، سيقولون إن روجينا وبناتها أكثر عفة"[٧٩].

أما روجينا وهي كبيرة الداعرات في بغداد فهي تزيد نساءها بكثير في الذكاء والحيوية، وتلعب مع كبار القوم في شؤون المجتمع والسياسة، مبدؤها الأكثر أهمية في هذا

---

(77) انظر: إبراهيم صالح، أزمة الحضارة العربية، ص١٦٠-١٦١.

(78) أرض السواد، ج١، ص٤٤٩.

(79) نفسه، ج١، ٤٠٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المجال: "أن المرية بحسنها وجمالها، تفتح أكبر باب، وتقدر على أوقح الرجال"[٨٠]، حاربت بهذا السلاح طويلاً وأثبتت أنها قوية وأن كلمتها مسموعة، ورأيها مطاع، وأنها تعرف ما لا يعرفه الكثير، وأثبتت ذلك –على سبيل المثال– في الحفلة التي أقامها السيد عليوي بُعَيدَ انتصاره على البدو وأشرفت على وضع أسماء المدعوين، وإذا عرفنا أن المدعوين هم كبار الضباط، نعرف إلى أي حد هي قوية ونافذة حتى في السياسة العسكرية، لذلك أكد أحد "الرجال في الرواية أنها ببغداد ... كلمتها ما تصير ثنتين واللي تريده يصير ... روجينا تحل من حبل المشنقة"[٨١].

لقد استعملت روجينا سلاحها وقدرتها على الدخول إلى عالم الرجال، ضد داود باشا شخصيا، تعاملت أولا مع ريتش لأجل إضعافه، ثم صارت مهمتها الأساسية تحريض الأغا عليوي عليه، وتزيين السلطة في عينه "منو داود لولاك، أنت، أنت، يا بعد عيني! ... يا ما كثر الليالي والأيام وآني أقول لروحي: يجي يوم وبصير حبيب الروح بالسراي، ووحده الحاكم الناهي"[٨٢]، وقد عرف داود قبل فوات الأوان أنها مع بناتها قادرة على اللعب بالسياسة وبعقول الرجال، وأن الأغا ما يخالف لها شور، وكلمتها ما تصير ثنتين، معلقا بمرارة: ما عايزة إلا هذي: القحاب هن اللي يحكمن ويرسمن!"[٨٣].

لقد أثبتت نساء السراي والداعرات في بغداد في أرض السواد أنهنّ قادرات على فعل أمور عظيمة وخطيرة، ولكنهنّ لم يوظفن هذه القدرة توظيفاً إيجابياً، كن دائماً يشوهن سمعة السراي، ويلعبن بنار السياسة خدمة لأعداء الدولة، ومع أكثر هؤلاء الأعداء خطورة

---

(80) أرض السواد، ج٢، ص٣٧٨.

(81) نفسه، ج٢، ص٢١٦.

(82) انظر: أرض السواد، ج٢، ص ٢٠٤ – ٢٠٦.

(83) نفسه، ج١، ص٣٨٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

القنصل البريطاني ريتش، الذي عمل جاهدا لإضعاف الولاية واستغلال مراكز القوى للالتفاف على الولاية مسلّحاً بقوة بريطانيا، وبموقعها الخطير ضمن المنظومة الدولية آنذاك.

- جهاز الأمن والاستخبارات:

لم يكن لدى داود باشا في أرض السواد جهاز أمن بالمعنى الحقيقي، إذ كان له عيون ترصد أعداءه وتحرص على تزويده بالأخبار تباعاً، لقد كلّف روجينا بمراقبة القنصل البريطاني ريتش مراقبة دقيقة، وأوكل إليها تتبع السيد عليوي في الشمال ورصد تحركاته واتصالاته التي يقوم بها تمهيداً للانقلاب عليه، ستلزم ذلك مراقبة روجينا، واختراق أوساطها، لأنها كانت صلة الوصل بين عليوي ريتش في أثناء عملها ضده، وأثبتت هذه العيون فعاليتها في ارتباط هذا الجهاز مباشرة بداود والعمل بتوجيهاته، وكانت مهمته الأولى الحفاظ على سلامته وكشف المؤامرات وإحباطها قبل أن تشكل خطرا على السلطة[٨٤].

- الجيش:

يقول داود صراحة في أرض السواد: إن لديه الآلاف من الفرسان المدربين المجربين، وهذا الجيش أولاً وأخيراً، خاضع لسلطته الفردية، يزج به في الصراعات الداخلية، لقمع معارضيه وتوطيد سيطرته، إذ لم يكن هذا الجيش بمثابة مؤسسة مستقلة على الأقل إداريًا وتقنياً، ومهمته الأولى حماية الوطن[٨٥]، وحاول داود أن يُحدّث هذا الجيش ويرفع من مستوياته القتالية، لكنه اصطدم بعقبات سياسيه جدية للحصول على السلاح، إذ كان عليه أن يحصل على موافقة اسطنبول المسبقة، بعد ذلك يجب تأمين ثمنه، لم يكن الثمن مادياً فقط بل

---

[84] إبراهيم صالح، أزمة الحضارة العربية، ص١٩٦.

[85] نفسه، ص ١٩٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

كان في جانب عظيم من الجانب السياسي، قد يصل إلى حد الارتهان، لقد عرض عليه ريتش تسليح الجيش دون العودة إلى اسطنبول، لكنه خاف من نواياه السيئة ومن العواقب السلبية.

- البـــــدو:

عانى داود باشا كثيراً من البدو ومن كثرة طلباتهم، على الرغم من ذلك كان على وعـــي تام بمشكلة البداوة بعامة، وقد أشار إلى أن العراق "لن يعرف الراحة أو الهدوء ما لم تتـــوطّن قبائل البدو، وتستقر وتعمل في الزراعة وتكف عن الغزو، وقد حاول فعلاً أن يُوطِّنَهم ويُزيِّنَ لهم الانخراط في الجندية ودفع الضرائب لكنه أخفق في ذلك"[٨٦].

خطط داود لحل هذه المشكلة والتفرغ لبناء دولته، "إذا الله راضي علينا وخلصنا من طلايب البدو وغيرهم ... راح يتحول العراق إلى جنـــه... راح نـــسوي الجـــيش، الـــسلاح، المعامل، المدارس، الجوامع ..."[٨٧]، ولم يتحول العراق إلى جنة، إذ شغل البدو داود طويلاً، "كانوا يملكون أسلحة"[٨٨]، "ويعرفون كيف يحاربون وكيف يوقعـــون بخـــصومهم الخـــسائر ويعرفون تماما الأمكنة التي تلائم في حروبهم وتضمن لهم الحركة وسهولتها"[٨٩]. عندها أيقن داود أنهم "البدو لا يفهمون إلّا لغة واحدة: لغة القوة؛ لذلك استعمِلُوا معهم أقسى الأساليب حتى لا ينسوا الدرس إلى ولد الولد..."[٩٠]، لغة فيها من الوعيد والتهديد ما يجعلهم يكفـــون عـــن الغزو، وينصاعون لأوامر الدولة.

---

[86] انظر: أرض السواد، ج١، ص٣١٠-٣١٨.

[87] نفسه، ج٣، ص١٠٥.

[88] نفسه، ج١، ص٣٢٩.

[89] نفسه، ج١، ص٣٣١.

[90] نفسه، ج١، ص٣٢٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

لم ينجح كعادته معهم، أجبروه على إعلان الحرب، وأوقعوا به خسائر بشرية ومالية فادحة، وهو بأمسِّ الحاجة إلى تلك الموارد في مسيرة بنائه للدولة، كانوا ولاية داخل ولايـــة كالنِّساء في بغداد ولاية داخل ولاية أيضاً.

٤- الحياة الاقتصادية في رواية أرض السواد:

- المـــــال:

توضح أرض السواد أن بغداد لم تستطع الانفصال -نقديّاً- عن اســطنبول، علـــى الرغم من الإذن التي حصل عليها سعيد باشا لسك البارات واستعمالها[٩١]، ولم يتطـــور هـــذا المشروع، وظلّت الولاية تستعمل الليرة الذهبية.

المال في أرض السواد يملكه الباشا، له الحق في إنفاقه، ساعة يشاء وفي ما يـــراه مناسباً، دون إقامة دائرة سياسية مالية معينة، أو جهاز إداري يتولى تنفيذها وتطويرها، فقـــد حاول داود أن ينظِّم الإنفاق، فعيَّن موظفاً إداريا همتّه الأساسية أن يصرف "المبالغ المالية بأمر مباشر منه، وكوّن بالإضافة إلى ذلك رؤية خاصة حول المال[٩٢].

رأى في البداية أنَّ المال للدولة "مثل الأكل والشرب للإنسان"[٩٣]، فلا غنـــى عنـــه وضرورة لا بد منها، ويجب أن يُصرف كي تحيا به الدولة، ثم حدد موجبات الإنفاق، فـــسمى الحرب ضد البدو بالحرب الهادفة، وحرب الخائفين المترددين، إذ أعطى الحرب ضد البـــدو حقها المادي، فقام بكل أعبائها ومتطلباتها، كان مؤمنا بأن هذه الخسائر "ستتحول إلى أربـــاح

---

(91) أرض السواد، ج١، ص٨٠.

(92) نفسه، ج١، ص٣٤٧.

(93) نفسه، ج١، ص٣٤٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كبيرة في المستقبل، عندما تؤدي جماعات البدو الضرائب والمستحقات، وعندما تصل البضائع بكميات كبيرة وبحرية، وهذا يحرك السوق"[٩٤]

وأراد بذلك بحسب هذه الخطة إخضاع البدو ودمجهم في المجتمع، وتحسين الجباية وتثبيت الأمن والاستقرار، ولم يتردد في الإنفاق في سبيل ذلك، اعتقاداً منه بأولوية ومردوده الاقتصادي الجيد، كما لم يتردد في الإنفاق على الخائفين المترددين لينضموا إليه ويؤازروه، إذ يؤدي المال في هذه الحالة هدفاً سياسيا لجذب الناس وخصوصاً النافذين منهم. فاصطدمت هذه الرؤية بمواقف نادر الشيخة الموظف المؤتمن على المال، ركّز بدايةً في فلسفته المالية على مثل بمثابة مبدأ أساسي يقول: "اللي معه فلس يسوى فلس"[٩٥]، لذلك كان يحث الباشا دائما على عدم الإنفاق، ويحاول أن يُبطل القرارات التي تُفرِّطُ بالمال العام أو يحد منه.

كما سلَّط الضوء على المعنى الديني للمال، فأكد أنَّه منذ البداية، وحتى الختام لله تعالى، ويجب المحافظة عليه، ثم أخذ يستعين بآيات من القران الكريم فيتلوها، منقوصة أو بطريقة خاطئة، يظهر عظمة العذاب الذي يلاقيه من يأكل المال الحرام[٩٦]، فعلى الرغم من هذه المحاولات لم يفلح بتخفيض الإنفاق، لم تخوله طبيعة عمله القيام بذلك، إنَّه موظف مهمة الأولى عدَّ المال، ولا يستطيع التدخل بالسياسة المالية.

لجأ أخيراً إلى النقد المباشر موجهاً إلى الأغا قائد الجيش: "الأغا مو خسران شيء من جيبه، أُخذوا... حلت البركة ... هذا حصان، وذاك فرس ... وهذه صرة ذهب ..."[٩٧]، وانتقد أيضا المسرفين أيا كانوا "لماذا يتعاملون مع النقود بهذا الشكل؟ إنهم يدمرونها يدوسون

---

(94) أرض السواد، ج١، ص٣٥٦.

(95) نفسه، ج١، ص٣٤٢.

(96) نفسه، ج١، ص٣٥٣.

(97) نفسه، ج١، ص٥٠١.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

عليها كما يدوسون على التراب"[٩٨]، وخصص بنقده اللاذع ضباط الجيش "الذين يرمون مبالغ كبيرة على صدور البغايا وبين سيقانهن ، فأشار إلى الأموال التي "تروح للي يسوى وما يسوى ... للقحاب والقواويد، وطالب بها لكيي تِنْظَم ليوم العازة"[٩٩].

حاول الاتفاق مع عزر أفندي وهو من النافذين في الأمور المالية، أن يتشدد أكثر ولا يلبي إلا الطلبات ذات الختم الأخضر والمصهورة بتوقيع الوالي ومعها موافقة عزر أفندي، وكان يعتمد على ذاكرته ليعرف ما تبقى على فلان من ديون للدولة، إذ يعطينا هذا الوصف صورة سيئة عن إدارته للغنائم ونائباً للشأن المالي كله ووظيفته فقط العد والصرف في ولاية عثمانية بعيدة عن المركز في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ادراته، إدارة بدائية تحاول الإمساك ببعض سمات التطور[١٠٠].

- التجارة:

خضعت التجارة في أرض السواد لمعايير سياسية وإدارية مستجدة وتأثيرات- إلى حد بعيد- بالعلاقات السياسية بالدول الغربية، حيث عانت التجارة في أرض السواد من أمرين: الأول سياسي متعلق بالإدارة الداخلية من جهة والعلاقات الدولية من جهة أخرى. والأمر الثاني: مردُّه إلى السوق مباشرة والى طبيعة السلوك التجاري آنذاك ،إنه الاحتكار[١٠١]، فعلى المستوى السياسي الداخلي نرى داود باشا كان مضطراً دائماً إلى

---

[98] أرض السواد، ج١، ص٣٧٦.

[99] نفسه، ج١، ص٣٨٦.

[100] انظر: إبراهيم صالح، أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمن منيف، ١٢٥-١٢٦.

[101] نفسه، ص٢٤٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

استرضاء شيوخ القبائل "الذين تمر القوافل مناطقهم بهدف حمايتها وتسهيل حولها"[١٠٢]، ويؤكد أحد التجار في الرواية أن السياسية وتصرفات السياسيين تؤثر سلبا في التجارة.

أما التأثيرات البريطانية السلبية في التجارة، فقد سيطرت الشركات البريطانية على التجارة قبل مجيء داود إلى الحكم، وقد استغل القنصل البريطاني تلك السيطرة، وقام برفع الأسعار إلى حدٍ خطيرٍ، فقد أوعز إلى وكيله تايلور أن يَحُولَ دون وصول المراكب المحملة بالبضائع والسلع إلى البصرة، وبعدها قام داود باشا بمراجعة المعاهدات والاتفاقيات المبرمة مع الولاة السابقين، فاكتشف أن التجار البريطانيين حاصلون على امتيازات تجارية استثنائية من الباشوات السابقين، فقد أعفوهم من القسم الأعظم من الضرائب المفروضة، فكانت الدولة تجبي من بقية التجار ثلاثة أضعاف ما تجبيه منهم، فحاول أن يصلح الأمر، إذ ألغى تلك الامتيازات "وقرر أن يشتري المراكب للاستغناء عن مراكب الباليوز"[١٠٣].

أمَّا المشكلة الثانية التي واجهت داود باشا والتي هي أكثر خطراً وأكثر أهمية، هو الاحتكار الذي أدّى إلى أزمات في السوق المحلية، إذ يرسل التجار على سبيل المثال أعداد من السماسرة لشراء الدواب والمواد تمهيداً لرفع أسعارها في ما بعد، واستطاع تاجر يهودي اسمه ساسون "أن يشتري قطعان الماعز والغنم والبغال والحمير حتى الهزيلة والصغيرة ويتحكم في أسعارها، ويجني الأرباح الطائلة ، فيتساءل سيفو أحد رجال الرواية "هذي تجارة لو نهب، فيؤكد رجل آخر أنها نهب، التجارة هذه الأيام شلون ينهب الناس، شلون يجمع فلوس"[١٠٤].

---

[102] أرض السواد ، ج٣، ص٢٢٧.

[١٠٣] نفسه،ج٣، ص٢٥١.

[104] نفسه، ج١، ص٤٤٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

النهب والاحتكار والهيمنة البريطانية، أبرز المشاكل الأساسية التي عانـــت منهـــا التجارة في أرض السواد على الرغم من النوايا الحسنة للدولة الممثلة بداود باشـــا لتـــصويب الأوضاع وحل المشكلات.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الباب الثاني: الشخصيات في أرض السواد:

- الشخصية التاريخية.
- عوامل تشكل الشخصية التاريخية.
- شخصية داود باشا.
- الشخصيات التاريخية.
- الشخصيات الشعبية.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

أولاً- الشخصية التاريخية:

هي التي يأتي بها الروائي من الأزمنة الغابرة، وهي صورة عن مرحلة تاريخية انقضت[١٠٥]، ولما كانت هذا الشخصيات بأصنافها السابقة ومعتمدة في الخطاب الروائي لاستحضار صورة العصر الماضي متمثلا في حضارته وبعض شخصياته وأبعاده السياسية أو الدينية أو الفكرية فقد راوح الروائي بين تقديم الشخصية التاريخية الجاهزة بسماتها وملامحها من جهة، والشخصية المحاطة بمحددّاتٍ تاريخية دقيقة من جهة أخرى، ويستند الروائي في الحالتين إلى ما أثبتته المصنفات التاريخية وما أقرتّه الذاكرة الجماعية والمرجعية الثقافية من معلومات حول الشخصية التاريخية ومنزلتها الاجتماعية[١٠٦]. أمّا الشخصية الجاهزة؛ فهي التي يقتبسها الروائي بصورتها القديمة اسماً ومركزاً وهيئةً وسلوكاً، كما هو الحال في وصف داود باشا في رواية أرض السواد.

ثانياً- عوامل تشكل الشخصية في رواية أرض السواد:

لا يخلو عمل روائي من شخصية إنسانية أو حيوانية واقعية أو خيالية، ولا تستغني شخصية ما عن قدر صغير أو كبير من الوصف، ولا يقوم في الرواية مشروع وصفي كبير أو صغير دون أن تحتل الشخصية فيه موقفاً بارزاً ملحوظاً، من أجل ذلك يبدو البحث في عنصر الشخصية الروائية حسّاساً بعض الشيء ومتشعباً كثيراً[١٠٧]، والشخصية التي يعتمد

---

(105) انظر: جورج لوكاش، **الرواية التاريخية**، ترجمة: صالح جواد كاظم، ط٢، وزارة الثقافة والأعلام العراقية، بغداد، ١٩٨٦، ص٥٢.

(106) انظر: نجوى القسنطيني، **الوصف في الرواية العربية**، ص٤٩٠-٤٩١.

(107) نفسه، ص ٤٨٥-٤٨٦.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الروائي في تكريس طابعها التاريخي على ما يحيط بها من أجواء، هي مؤطرة في الخطاب الروائي ومحددة بمثل هذه العوامل التاريخية الصريحة[١٠٨]:

-العامل الزماني:

ويُدرَكُ من سياق الحكاية وما يُعرض عبرها من معلومات دالة على العصر الذي تدور فيه الحكاية، ومن أسماء الشخصيات وما يقع لها من أحداث، وعليه فإن رواية أرض السواد تقع في الفترة الزمانية التي حكم فيها داود باشا أهل العراق،(١٨١٧م-١٨٣١م).

-العامل المكاني:

و يُستدل عليه من سياق الخطاب أو بذكر اسمه صراحة، كتسمية الروائي بعض الأماكن في الرواية[١٠٩] مثل: بغداد، كركوك، البصرة، الموصل، اسطنبول، كرمنشاه، السليمانية، حي صوب الكرخ، صوب الرصافة، قهوة الشط، السراي، والباليوز.

-العامل الحضاري:

وهو العامل المستخلص من تعليقات الروائي وأحاديث الشخصيات وما يسود العالم الروائي من أجواء[١١٠]، مثل: مجيء السفينة البريطانية، والمدفع العملاق الذي صنعه داود، وأهل العراق، والآثار التي أُعجبت بها(ماري) زوجه القنصل البريطاني.

ويأخذ الروائي الشخصية بكثافتها التاريخية الجاهزة أو التي يضعها ويضيفها في غمار مغامرة روائية تختلف وقائعها حسب غرض الروائي من عودته إلى العصر القديم واستحضار شخصيات الروائي عمله منه، إذ يحقق الروائي في هذه الحالة -بوجود شخصيات روائية

---

(108) انظر: نجوى القسنطيني، الوصف في الرواية العربية، ص ٤٩١-٤٩٢.

(109) نفسه، ص ٤٩١-٤٩٢.

(110) نفسه، ص٤٩١-٤٩٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

تاريخية في الخطاب الروائي- غرضاً يساعده على نقد المجتمع حديثاً أو قديماً وبيان مساوئه، ما يعني أن للشخصية التاريخية على مستوى الخطاب والحكاية معاً حضوراً وفاعلية ينتهيان إلى استحضار الخصائص النفسية والفكرية المتطورة عبر المغامرة الروائية[١١١].

لذلك فإن التعامل مع الشخصية التاريخية في أرض السواد قد أخذ أشكالاً متعددة، وقد جاءت هذه الأشكال على النحو الآتي:

ثالثاً- شخصية داود باشا:

لأهمية هذه الشخصية في الرواية فإننا نفرد لها جانباً مناسباً في هذا الباب، فكُتب التاريخ تحدثنا أنَّ داود باشا كان أعظم ولاة المماليك الذين حكموا العراق ما يقرب من قرن كامل، (١٧٤٩م - ١٨٣٤م)، وكان أول هؤلاء الولاة هو سليمان أغا الذي زحف على بغداد فحاصرها واستولى عليها معلنا أنَّه الباشا الشرعي، وطلب من السلطان العثماني إصدار فرمان بذلك، وقد ساعده على بلوغ هدفه تقديمه الهدايا، وحاجة الدولة العثمانية إلى استمرار استقرار الأمور في العراق المجاور لإيران[١١٢].

وقد قارن بعض الرحالة الذين زاروا بغداد في القرن التاسع عشر بين طموح والي بغداد داود باشا، وطموح محمد علي باشا والي مصر بالانفصال عن الدولة العثمانية، على الرغم من أن داود باشا انشغل بالقتال ضد أعداء السلطان أكثر مما قاتل لأجل مصلحته. فلقد كان النفوذ الإيراني واسعا في عهده، وكبيرا في شمال العراق، وكذلك المشاكل العشائرية. لكنه كان شأنه في الإصلاحات التي قام بها داود باشا، عدت خروجا على واجب الولاء، وطعنا للدولة العثمانية. كما أن إصلاحاته لم ترض الدول الأجنبية بما في ذلك بريطانيا، فضلا عن المشكلات والصراعات الداخلية والحروب الخارجية، والأمراض والكوارث الطبيعية،

---

[111] انظر: نجوى القسنطيني، **الوصف في الرواية الحديثة**، ص ٤٩٢-٤٩٣.

[112] رأفت الشيخ، **تاريخ العرب الحديث**، عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ٧٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد أوعزت الدولة العثمانية التي كانت منهكة في حروبها مع روسيا والجبهة اليونانية وثورات باشاواتها، أوعزت إلى محمد علي باشا والي مصر قبل أن يستقل أو ينفصل عن التبعية العثمانية، والذي أصبح جيشه قريبا من البصرة أثناء حروبه مع الوهابيين، لمساندة داود باشا في صده للغزو الإيراني ، حيث طلب داود باشا الإمدادات، غير أن محمد علي باشا المنسحب من الإحساء سنة ١٨١٨ م. تعذر عليه إسناد داود باشا، بسبب طول خطوط المواصلات بين العراق ومصر من الناحية العسكرية ولكونها تحتاج إلى تكاليف باهضة. أو انه امسك عن تقديم الإسناد متعمدا، مما اضطر داود باشا أن يعتمد على نفسه وجيشه ويتخندق في بغداد. ويبدو إن الإرادة الإلهية كانت بجانب هذا الوالي فقد تفشى مرض الكوليرا في الجيش الإيراني الذي كان يقوده (بالشاهزاد) محمد علي ميرزة. وهو من ألد أعداء داود باشا، وكان ذلك من أهم العوامل التي أدت إلى عقد الصلح بينهما ومع ذلك فقد التقت إستراتيجيتهما وطموحهما داود ومحمد علي باشا في الاستقلال. ولكن لقرب العراق من الأستانة تم عزل داود باشا وإحباط محاولاته في الانفصال عن الدولة العثمانية، فيما تعذر عليهم اسقاط محمد علي باشا البعيد نسبيا عن الأستانة.. فضلا عن دور الأصابع الأجنبية التي كانت تعمل وعملت في الخفاء ضد داود باشا لاسيما الأصابع البريطانية المتمثلة بالقناصل والوكلاء السياسيين. ولكنها وان لم تنجح في البداية في كبح جماح النزوع الى التحرر من التبعية عند محمد علي باشا، فقد تمكنت من افشال افكاره الوحدوية وقطع الطريق امام اي تطلع وحدوي لاحق، عندما زرعت الكيان الصهيوني في ارض فلسطين، قلب الوطن العربي، ليشكل حاجزا امام مثل تلك التطلعات الوحدوية التي تمثلت بدعوة محمد علي باشا لتوحيد وادي النيل ببلدان الهلال الخصيب.كما افشلت من قبل التطلعات الوحدوية عند داود باشا الذي يسعى لتوحيد

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

العراق بولاية واحدة بدلا من خمس ولايات، ومن ثم يحقق حلمه بالاستقلال عن الدولة العثمانية.

أمَّا آخر هؤلاء المماليك فقد كان داود باشا الذي بدأ حكمه سنة١٨١٧م، وانتهى سنة١٨٣١م، وكان داود باشا قد وُلِدَ في مدينة تفليس بجورجيا سنة١٧٦٧م، وجِيء به إلى بغداد سنة ١٧٨٠م، حيث بِيع أول مرة ثم بِيع ثانية واعتنق الاسلام ثم انتهى به الأمر الى قصر سليمان الكبير أول وُلاة المماليك بالعراق، وهناك استطاع أن يكتسب مهارات استعمال السلاح ويتلقَّى تعليماً طيباً يتيح له إجادة الكتابة باللغة العربية والفارسية والتركية، وهو ما خوله لأنَّ يغدو كاتباً للباشا سليمان، ثم أميناً للمفاتيح ثم حاملاً للأختام، ويبدو أن سليمان باشا كان يقدِّر مواهب المملوك داود، ولذالك زوّجه إحدى بناته، ثم أخذ يتقلب في المناصب الإدارية، فأصبح (دفتر دارا*) في عهد عبد الله التوتونجي، ثم (الكتخدا*) ثم دفتردارا مرة أخرى في عهد سعيد باشا، وهو من أنجال سليمان الكبير[١١٣].

بيع داود باشا في أسواق العراق وانتقل من يدٍ إلى أخرى وقابل مختلف الناس والعناصر حتى وصل به المطاف إلى سليمان باشا الكبير، فإذا بهذا الطفل المسيحي يعيش في

---

* الدفتر دار: هو الذي يدير أعلى مركز مالي في الدولة أو وزير المالية، بالنسبة للوالي: تجمع بسلطته بصورة مباشرة أو غير مباشرة الضرائب التي يفرضها الوالي، يجب أن يكون الدفتردار مطلعاً على قوانين الدولة المالية وذكياً، وذا خبرة في الحياة العامة ليحسن إدارة الولاية، والدفتردارا على أقسام ودرجات متنوعة. ستيفن همسلي، **أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث**، ترجمة جعيفر الخيَّاط، ط٣، مطبعة البرهان، بغداد، ١٩٦٢، ص١١٥.

* الكتخدا: وهو معاون الوالي ويقوم بمساعدته في جميع القضايا الإدارية والعسكرية والمالية وقيادة الجيش ضد القبائل الثائرة، وقد يسمى الكهيا أو الكيخيا. ستيفن همسلي، **أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث**، ترجمة جعيفر الخيَّاط، ط٣، مطبعة البرهان، بغداد، ١٩٦٢، ٢٦٣.

[113] ستيفن همسلي، **أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث**، ترجمة جعيفر الخيَّاط، ط٣، مطبعة البرهان، بغداد، ١٩٦٢، ص٢١٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بيئة إسلامية، و يهوى صوت المؤذن الذي يؤذن للصلاة، وبـذلك اطمـئن قلبـه بالاسـلام واعتنقه[١١٤].

عرف داود الحياة وتمرس بها صغيراً، وتعلم ما لم يتعلمه أمثاله من الشباب، وقد أخذ سيد البلاد يعنى به عناية طيبة، ويوجهه التوجيه الكريم، وانكب داود بهمة ونشاط على دروس اللغة العربية والفقه، وعلم الأصول، كما أجاد قراءة القرآن الكريم إجادة تامة وحفظ من آياته، كما درس البيان والبديع وعلم التفسير[١١٥].

أخذ داود باشا يعتلي المناصب حتى صار دفتردارا، وعندما تسلم سعيد باشا الحكم رفعـه إلى درجة الكتخدا، وكان داود باشا يرفع من سمعته يوما بعد يوم، فلم يُنزِّل نفسه كغيره إلـى قبول الهدايا والرشاوي، وهو في غنىً عنها يصده الأدب والعلم، وقد عامل الجـيش معاملـة حسنة فكسبه.

وعندما تبوأ سعيد باشا أريكة الحكم عُيِّنَ كتخيداه، وأطلق يده في شؤون الدولـة، رغـم معارضة أم سعيد باشا لداود، وبعد أن ذاع صيته وعلت شهرته مع محبة الجيش لـه، أشـار معاونو سعيد باشا عليه بالخلاص منه بأسرع وقت، قائلين لسعيد حسب المثل الشعبي (تغـدى به قبل أن يتعشى بك)، ورُتِبت خطة لقتل داود ولكنه عَلِمَ بذلك، ففـر هاربـا حتـى وصـل كركوك، فرحب به محمود باشا ترحيبا حارًا لمكانته[١١٦].

ثم تأتي الرسالة التي كتبها داود، والتي استغل في كتابتها كل ما أوتـي مـن علـم فـي الفصاحة والبلاغة، إلى السلطان الأكبر، وقد كانت هذه الرسالة معقد آماله، ففيها يبلغ الذروة، وفيها ينزل اللَّحد، مخبراً فيها السلطان الأكبر -عبر صديق له هناك-، بأدق الأمور، وتـأتي

---

(114) يوسف عز الدين، داود باشا ونهاية المماليك في العراق، ص٤٠.

(115) نفسه، ص٤١.

(116) نفسه، ص ٤٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الرسالة المدوية، لسعيد ورفاقه، تأمر بتعيين داود بدلاً من سعيد، مع قيام ثورة في محلة الشيخ، ما سهل الأمر على داود[١١٧].

كان داود باشا، يشعر بفساد حال الدولة، لذلك كانت الآمال تداعب نفسه في أن يستقل في بغداد كما استقل محمد علي باشا في مصر، فكان الجيش أول اهتماماته ليكون عند الملمات وساعة الشدائد ساعده الأيمن، وقد استعان بمدرب عسكري فرنسي من ضباط نابليون لتدريب جيشه، وطلب بعض المعدات لهذا الجيش من الحكومة الهندية فرفضت، خشية أن يكون السلاح تمرداً على الدولة العثمانية التي تقيم معها علاقات طيبة، ولكنه أحضر صُنَّاعاً من أوروبا وأنشأ مصانعَ للسلاح، كما ألَّف جيشا نظاميا عدده عشرة آلاف، فأخذ الجيش يشتد ويقوى، ثم أخذت الروح المعنوية ترتفع لدى هذا الجيش[١١٨].

كان داود باشا يفكر في إصلاح الدولة، ونشر العدل فيها، ولا سيما إصلاح القلوب، والتقرب إليها كي يلتف حوله الناس، فقد أخذ يتقرب إلى الصوفيين، وقام بدفع الأموال لزعيم الصوفية آنذاك خالد النقشبندي لسد دينه، وقد كان للطرق الصوفية أهميتها ومكانها وسطوتها آنذاك، فأخذوا يلهجون بالدعاء له والثناء عليه[١١٩].

كما اعتنى بعمارة بغداد وأخذ يَعمُرُ المساجد والجوامع، وأمر بغرس الحدائق والبساتين، ومن أشهر الجوامع التي بناها الجامع المعروف المولى خانة وجامع حيدر خانه وجامع باب المعظم، ومسجد السيف، ومسجد الجسر، كما قام بتجديد بعضها مثل جامع السادة في الباب الشرقي، كما اعتنى بالأسواق مثل سوق المولى خانه، وسوق الحيدرخانه، والخان المتصل

---

(117) يوسف عزالدين، داود باشا ونهاية المماليك في العراق، ص ٤٨.

(118) نفسه، ص٤٣-٤٤.

(119) نفسه، ص ٥٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

بباب الجسر المعروف بخان داود باشا، ومخزن الأطعمة[١٢٠]. واعتنى داود باشا ببعض الإصلاحات العامة مثل حفر الأنهار الصغيرة التي عفّت ودرست.

وقد فكّر داود باشا أن يستقل بالبلاد، وإقامة الدولة المستقلة على غرار دولة محمد علي باشا في مصر، ولم تكن الدولة العثمانية غافلة عن تصرفات داود باشا، ولم تكن تستطيع فعل شيء لانشغالها في حربها مع روسيا، وقد طُلِبَ منه أن يساعد السلطان في الحرب على روسيا، لكنه أبى واعتذر بمعاذير واهية، الأمر الذي جعل السلطان ينظر إليه بعين الريبة والحذر[١٢١].

وقد أشار عبد الرحمن منيف إلى طموح داود باشا الذي لم يكن ليكتفي بمقارعة المناوئين، ومواجهة الأخطار الداخلية والخارجية وتحديث الجيش والعتاد العسكري وتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية المتردية في الداخل وإنما كان يريد أن يقتفي آثار محمد علي باشا والي مصر، الذي كان بدأ في انجاز مشروع حضاري شامل.

ولذلك نراه يسعى إلى تعبئة فئات المجتمع البغدادي عندما يحس بانتصاره على مناوئيه، وهو ما يفصح عنه في لقائه مع شعراء بغداد في أعقاب حملة الفرات الأوسط والتي نجحت في إطفاء نار الفتنة هناك[١٢٢]، "إن المرحلة الجديدة تقتضي إسهاما من الشعراء لكي يحرضوا الناس على المشاركة في مساعدة الدولة من أجل البناء والتنظيم خاصة وأن الولاية مقبلة على عهد جديد، والالتفات إلى الأعمار بحيث تصبح بغداد من جديد عاصمة الدنيا وقبلة العلماء

---

(120) يوسف عزالدين، داود باشا ونهاية المماليك في العراق، ص٤٩.

(121) نفسه، ص٥٤.

(122) بشير الرشيد بوشعير، توهج ملّ الرماد، ص١٤٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

والشعراء، ومركزاً للبحّارة، ومحجاً للسوّاح والزائرين، ولكي تصبح بغداد هكذا لابد أن يبذل الصغير والكبير والغني والفقير، الجهدَ والدم والعرق"[١٢٣].

ومما يعزز هذا الطموح الحضاري لدى داود باشا في الرواية تلك الأوصاف المسهبة لمظاهر الحضارة العراقية القديمة في الرواية، وذلك من خلال البعثات الأثرية الفرنسية والانجليزية إلى المنطقة، ومن خلال اهتمام ريتش وزوجته ماري باللُقى والتحف الأثرية التي كانت تأخذ بألبابهما[١٢٤].

كان عبد الرحمن منيف يزيد في التصوير السردي و إيراد التفاصيل من أجل اختبار الباشا الحاكم، فهو يستحضره في أي وقت يشاء، ليظل تحت رحمة السارد، ولهذا نرى المزج المتميز بين الزمنين: الماضي والحاضر، إذ يستخدم الماضي عندما يستحضر الشخصية، أما الحديث عن الحاضر أو المستقبل، فشيء مخالف للتوقعات، فقد نفّذَ الباشا حكم الإعدام في رجال سعيد[١٢٥].

كما قرر أن يعمل لأخرته ببناء المساجد وترميم القبور والزوايا القديمة، والعناية بالخط العربي ليكتب ويرسم على الحوائط ما يخلّد مسيرته وتاريخيه، وهذا الاهتمام بالآخرة تناقض مع ما هو موجود، إذ تم الاحتفاء والاعتذار للقنصل البريطاني في موكب بهيج، حيث كان "خلف هذا الموكب موكب من رعاع المدينة وبهاليلها، والمتسولين والعاطلين عن العمل، والصبية، كان هؤلاء يصفقون ويهزجون ... ولولا الحراسة الشديدة التي أحاطت بالموكب

---

(123) أرض السواد، ج١، ص٢٣٠.

(124) بشير الرشيد بوشعير، توهج ملّ الرماد، ص١٤٩.

(125) مدحت الجيار، قناع السرد، ص ٢٥٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لأفسد هؤلاء الرعاع كل شي[١٢٦]، وهي أعمال لها ما يفسرها في تاريخ البطل النفسي والاجتماعي.

كان ذا مظهر جميل، ملتحياً، ذا طول معتدل تجليه الحشمة والوقَار، وتظهر على وجهه إمارات الدَّعة والذكاء وكان ديوانه أعرق الدواوين التي عرفتها بغداد وأكثرها سمواً وازدهاراً، غير أنه كان يُظهر الجبن والتردد في مناسبات خطيرة، وفي مناسبات أخرى كانت تستفحل فيه البسالة، ومن الغريب أنه كان يؤيد التقدم العلمي والثقافة العقلية ويثنى عليهما.

وكان كرمه مصحوبا بجشع مسنون، ولم ينجه ذكاؤه الذي لا ريب فيه من أذم أنواع الحماقات وأكثر الأحكام خطأً، ولم يكن وفيا في معاملاته للأشخاص ولا مستقراً على حال، وكان فيه حس من السجايا العالية، وشرر من الشخصية الفردية، الأمر الذي رفعه من دَرَكَةِ المملوكية الحقيرة إلى درجة الباشوية، وهو وإن لم يكن عظيماً بالمعنى الحقيقي، فقد كان ذا شخصية بارزة بأكثر مما يحتويه الحكم من مظهر فخم وسلطان متسع، ولو قُدِّر لحكَّام أقوى منه وأعقل أن يلاقوا شتى الأحوال التي مرت عليه، بعد إبقائه خمسة عشر عاما في عز وثروة لتقهقروا عنها خائبين[١٢٧].

يدخل الراوي نفس البطل ليصوره بقوله: "وجاء ربيع آخر بعد شتاء طويل وداود باشا الذي انشغل بأمور عديدة لم يستطع أن يتابع معالجة المسائل الصغيرة، أو أن يسمع تفاصيل ما يحدث كل يوم[١٢٨]، إذ يهتم السارد بهذه التفاصيل الصغيرة، ليدخل على مأساة الباشا الخاصة، والطفلة المعوقة (محسنة) التي لم ينفع فيها طب أو سحر رغم ما يملكه من مال وسلطان، ونية الباشا والعناية ببيوت العبادة، لعلها تكون وسيلة له ولمحسنة عند الله طلباً

---

(126) أرض السواد، ج١، ص١٧٩.

(127) استيفن هيمسلي، أربعة قرون من تاريخ العراق، ص ٣٣٩.

(128) أرض السواد، ج١، ص٢٤٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

للشفاء والسلامة، أو لتكون البنت العاجزة – في النهاية- شفيعة له عند الله في الآخرة، مثلها مثل بيوت العبادة وأعمال الخير، ويظهر هذا التناقض بين اللذة، وبيوت العبادة، مثلما ظهر بين القصر والقنصلية.

ولا يتوقف السارد وهو يحلل خواطر داود باشا عن إيراد ما كان يماثلها عن أخلاق سليمان باشا الكبير، إنه يدخل بنعومة وشراسة داخل نفس داود، يعود به لأصله الجورجي وفي قرية تفليس حيث الطفولة ودفء الأسرة ونعومة الحياة وراحة الضمير التي لا يجدها الآن وهو حاكم لبغداد[١٢٩]، حيث كان داود باشا "في ليالي السهد، وما أكثرها، ... يسافر بخياله إلى أماكن عديدة يستعرض وجوهاً وأحداثاً لا حصر لها، لكن في الفترة الأخيرة استبدت به جورجيا، ويستغرب أن تفليس التي كانت غائبة طوال سنين وسنين، أصبحت توافيه في الكثير من هذه الليالي! فجأة يجد نفسه يرحل إلى هناك، إذ تهف في أنفه رائحة الأرض، ودخان أيام الشتاء، أو تتبدى له أزهار الربيع بألوانها وهي تزركش الحقول، لكن في لحظة تغيب كل هذه المشاهد، ولا يبقى إلا وجه أمه، كان وجهها مستديرا مشربا بالحمرة، ومع أنها تميل إلى القِصَرِ، أو ربما تبدو كذلك لسمنتها، إلا أنها سريعة الحركة بالغة النشاط وهي تملأ البيت بالدفء والحيوية منذ الصباح الباكر"[١٣٠].

ورغم أن تفليس تعاوده مرة أخرى في ليالي السهر ومعها وجه أمه بشكل خاص ثم تتعاقب بعد ذلك الوجوه: جورجي (عمانوئيل) أبوه و(شيو) أخوه و(ديمتري) أخوه الأصغر

---

[129] مدحت الجيار، قناع السرد، ص ٢٥٤.

[130] أرض السواد، ج١، ص٣٠٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومع أنه يحبهم كثيراً، ويحب أمه أكثر من أي إنسان آخر إلا أن ذلك جزء من الماضي، هذا الجزء الذي يجب نسيانه لأنه في النتيجة لا يعني له الكثير الآن[١٣١].

هكذا يظهر داود باشا في نهاية الجزء الأول، بل هذا ما دعا إليه الكاتب إلى مقارنات متعددة مع نابليون، ومحمد علي باشا والي مصر في الفترة نفسها، إذ كان الجميع ضد الدولة العثمانية، وكانوا جميعا على مشروع التحرر والاستقلال، وبناء الدولة الحديثة المتقدمة بالعلم الحديث والثقافة المتطورة[١٣٢].

كانت العلاقة بين داود باشا و السلطان محمود ودية، لكن نزعة داود باشا في الاستقلال التي راودت ذهنه، وعدم الالتفات إلى أوامر السلطان، وعدم مساعدته في حربه مع روسيا، هذه الأمور جعلت السلطان يفكر في عزله من منصبه، فأرسل صادق أفندي إلى بغداد لمفاوضة أحد مماليك داود باشا ليحل محله، ولكن هذا المملوك أخبر داود باشا بذلك، فسارع إلى قتل صادق أفندي، وحاول إرضاء السلطان بشيء من الهدايا، ولكن لم تتحمل اسطنبول ذلك، فأرسلت والي حلب علي رضا باشا على رأس قوة كبيرة من الجيش لعزله بالقوة[١٣٣].

تزامنت حملة والي حلب علي رضا باشا مع إصابة داود باشا بالطاعون الذي أخذ من جسمه وتفكيره، وقد طلب من خدمه أن يغادروا بيته، وبقي على رضا باشا خارج بغداد، ومما زاد الأمر سوءاً احتراق السراي الذي أتى على جميع ممتلكات داود باشا ومدخراته، ولم يكن يريد علي رضا باشا أن يزيد في خراب بغداد، بل أراد أن يدخلها سلماً حفاظاً عليها، وخاصة بعد أن أرسل السلطان رسالة إلى علي رضا باشا يأمره فيها بإحسان التدابير في دخول بغداد، الأمر الذي فتح باب المفاوضات مع داود باشا الضعيف وجنده، فخرج منها أسيرا محترماً،

---

(131) أرض السواد، ج١، ص ٣٠٢.

(132) مدحت الجيار، قناع السرد، ص ٢٥٥.

(133) يوسف عز الدين، داود باشا ونهاية المماليك في العراق، ص ٥٦.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الأمر الذي أدى إلى العفو عنه من قبل علي رضا باشا، وعندما قابله السلطان ولّاه البوسنة، ثم والياً على الحرم النبوي الشريف، وتوفي في المدينة المنورة بعد أن تولى الحكم في ولايـــة بغداد[١٣٤].

ومن الملاحظ أن الروائي يستخدم اسلوباً فنياً يكاد يكون متميزاً، بحيث يشعرنا بـــالتطور الدرامي لهذه الشخصية من خلال استبطان الشخصية، وتحليل نفسيتها، ونقل الصراع الداخلي الذي يصطرع داخل الشخصية نتيجة الظروف السياسية والاجتماعية المعاكسة التي تعيـــشها الشخصية، ومن هنا يبدو الصراع ذا شقين: شق يتجه إلى الداخل ينقل لنا الروائي من الداخل عذاب الشخصية النفسي، وقلقها الداخلي، وتأزمها العاطفي، ينقل لنا الروائي من خلاله عذاب الشخصية في التصدي لمفارقات المجتمع وتناقضاته، ثم تنفلت الشخصية في حوارات طويلـــة مع نفسها [١٣٥].

رابعاً- الشخصية الروائية التاريخية:

أن الشخصية التاريخية المفعلة في الرواية هي الشخصية التي تـــدور حولهـــا الأحـــداث التاريخية الحقيقية وهي أول من يصنع الأحداث الروائية كما تعد من المعضلات التي تُرهق الروائي بل وتأسره ضمن قانونها التاريخي الخاص. "وتوظيف الشخصية التاريخية في العمل يحتاج إلى دراية كاملة بالأحداث التي اشتركت فيها الشخصية وتلك التي لم تشترك فيها هـــذا من جهة، ومن جهة أخرى يحتاج إلى معرفة اللغة التي كانت تتحدث بها هذه الشخصية [١٣٦].

---

(134) انظر: يوسف عز الدين، **داود باشا ونهاية المماليك في العراق**، ص ٥٩ – ٦٠.

(135) انظر: عيسى نوري قويدر، **عبد الرحمن منيف روائيا**، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٨٤م، ص ٧٨ــ٧٩.

(136) نضال الشمالي، **الرواية والتاريخ**، ص ٢٢٦.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إن قدرة الروائي على التخيل وربط الأحداث واستنتاجها كفيلة بأن تقدم للراوي تصوراً جيداً عن تلك الشخصيات حين يعمد الروائي إلى توظيفها في روايته.

ولا تقف الصعوبات عند المرجعية التاريخية فحسب، بل تتعدى ذلك إلى المرجعية التخيلية عندما تتورط الشخصيات التاريخية في حوار أو موقف مع شخصيات متخيلة، إذ لا تكفل لنا النصوص التاريخية الوثائق التي نحتاجها دائماً، فتعود مرة أخرى إلى تأكيد مبدأ المزاوجة بين ما كان وأُثبِت، وما كان ولم يُثبَت (المسكوت عنه)، إذ أن الخطأ في هذه المزاوجة قد يُفسد بناء الشخصية التاريخية، ومن ثم المصداقية الوثائقية في العمل الروائي برُمَّته، فما كان ولم يُثْبتَ (المسكوت عنه) يجب أن يتناسب مع ما كان وأُثبت، فيغدو مقبولاً، ذلك أن مساحة (المسكوت عنه) في الرواية التاريخية هي المساحة التي يمكن لكاتب الرواية التاريخية أن يتجول فيها رغم ضيقها، ولكنه بخياله الخلَّاق قادر على توسيعها في ذهنه واستغلال كل شبر فيها، وهذا ما يرفع قدر كاتب ويحط من قدر آخر[١٣٧]، إذ ليس موضوع الرواية التاريخية بالدرجة الأولى هو أن يُعلي من شأن العمل أو يحط منه بل أن حسن الأداء هو الأمر المهم، فالهدف الأول ـكما ورد على لسان مؤلفهاـ هو طبيعة العراق، وأناسه في بداية القرن التاسع عشر.

ومن أمثلة الشخصيات التاريخية التي أخذت حيزاً في العمل الروائي، شخصية (داود باشا)، فالرواية مقصورة بالدرجة الثانية على إظهار صور متعددة لأحد الولاة الذين نحتاج إليهم اليوم، والوالي داود باشا (الصح) في الزمن (الخطأ) إذ لم يتوانَ مؤلف الرواية عن كشف شخصية داود باشا بلسان داود نفسه، فأقحمه في مشاهد حوارية كثيرة مع شخصيات تاريخية حقيقية وأخرى متخيلة، دون المساس بالمرجعية التاريخية لها، وقد بدأ حَذرُ المؤلف

---

[١٣٧] نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ص ٢٢٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

في التعامل مع هذه الشخصية عندما تَظهَر، لأنها تمتلك حصانة تاريخية تقيها من الاختلاق والتقول عليها، والمشهد التالي يكشف لنا مدى اقتراب عدسة الراوي من شخصية داود اقتراب المتأمل المغامر[١٣٨]. وقد كان أول ظهور لشخصية داود باشا على لسان الراوي الذي قدمه ومجدَّه: "وغرق سعيد بعشقه وفسقه، فأهمل أمر الرعية وشؤون الحكم، فقد تدهورت الأحوال وضاق الناس، وارتفعت الشكوى ولم يتأخر داود لكي يلتقط الإشارة، ويدرك أن زمنه قد حان"[١٣٩].هذه هي بداية ظهور شخصية داود باشا في الرواية، إذ اقتربت عدسة الراوي منه -كما ذكرنا- دون توجس، فهو يشترك في الحوار مع الشخصيات الأخرى ويتفاعل معها، "قال الباشا لعليوي يوصيه: ترى ابن الزنا، حمادي، أظافره متروسة طحين، فأريد قبل أن يفارقنا يزوّع آخر باره، وأريد أعرف ممن أخذ والى من أعطى... هه ... الدولة ينراد لها فلوس ما تاكلها النيران يا آغا، وهذا ابن الزفرة، أكل الأخضر واليابس، فأريدك تبوق لسانه، أريدك تحوفه من هان لهان، حتى نحصل على الذهب اللي نهبه هو وسعيد"[١٤٠].

والشخصية التاريخية التي يمثلها داود باشا شخصية حية واقعية تتعامل بشكل اعتيادي مع المواقف وتتحدث مع غيرها من الشخصيات وتتحدث بلهجتها، ضمن موضوعات ومفاهيم لا توثر على نسقها التاريخي العام النابعة منه، وفي مواقف أخرى يزداد التحرر مع الشخصية التاريخية، فيصل حد التأمل النفسي والحوار الداخلي (المونولوج)، إذ يحادث داود باشا نفسه: "هؤلاء البدو يعرفون شيئا واحداً، وقد أتقنوه لفرط ما أدمنوا عليه: إشغال الدولة، انهم لا يعرفون الحرب، صحيح إنهم يقاتلون، لكنهم لا يستطيعون التمييز بين النصر والهزيمة، وربما لا تعنيهم هذه القضية، فقط يريدون خصما حتى لو كان وهميا كي يحاربوه. بهذه الطريقة

---

(138) نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ص ٢٢٨.

(139) أرض السواد، ج١، ص ٢٣.

(140) نفسه، ج١، ص ١١٩.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

يشعرون بوجودهم وأهميتهم، أما إذا غابَ الخصم فعندئذ يأكلون أنفسهم إلى أن يتلاشوا، ويبدو أنهم لا يريدون التلاشي على الأقل الآن!. هكذا مرت الصور في ذهن داود باشا، وهو يستعيد علاقاته وحروبه معهم"[١٤١].

ومن الشخصيات التاريخية التي نجحت أرض السواد في رسم صورتها وتفعيلها داخل الرواية، شخصية القنصل البريطاني (ريتش) في بغداد إضافة إلى شخصية (الأغا سيد عليوي) الذي كان لشخصيته اليد الطولى في تفعيل كثير من الأحداث و تغيير مسارها دون أن تفقد مصداقيتها، مع الملاحظة أن مثل هذه الشخصيات لا تظهر كثيراً إلا من أجل الاشتراك في مشاهد قد تؤدي إلى أثر تاريخي مثبت[١٤٢].

خامساً- الشخصيات الشعبية:

على الرغم من أن الرواية التاريخية في صورة من صورها هي "اختزال للتاريخ أي تقريب مبسط للأحداث والشخصيات التي كانت موجودة آنذاك، إلا إنها عوَّضت كثيراً عن الشخصيات التاريخية المفترضة، -ربما تكون مما انشغل التاريخ عن ذكره- ومن هنا تتشح الرواية التاريخية بمهمة التنبيه إلى تلك الشخصيات التي كانت موجودة في ذلك الوقت، فالرواية التاريخية تزاوج عادة بين الشخصيات التاريخية والشخصيات المتخيلة[١٤٣]، إلا أن الأمر لا يقف فيها عند هذا الحد وإنما يتجاوز إلى ظاهرة أخرى هي إسناد أعمال لا تاريخية إلى الشخصيات التاريخية وأعمال تاريخية إلى الشخصيات المتخيلة.

فالشخصية المتخيلة في الرواية التاريخية شخصية مكمِّلة لمشروع وضعه الروائي وأراد إتمامه من خلال هذه الشخصيات، فهذه الشخصيات لا تَحدُّها مرجعية ولا تقيدها نصوص

---

(141) أرض السواد، ج١، ص١١٤.

(142) نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ص ٢٣٠.

(143) نفسه، ص١٢١.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

التاريخ القديمة، فهي ليست وليدة ذلك، بل وليدةُ تمازج الأفكار وتبلورها على نحو خاص[١٤٤]. فبناء الشخصية التاريخية المتخيلة على هذا الجانب من المهارة والإتقان والإمكانيات الكبيرة النابعة بشكل أساسي من حرية الراوي الذي يشكلها دون قيود مسبّقة.

ومن الشخصيات المبتكرة في أرض السواد شخصية (بدري) وهي شخصية من صنع الخيال، أسهمت في ربط كثير من الأحداث على نحو معين، فـ(بدري) يعمل ضمن قوات (الأغا سيد عليوي) في الشمال في (كركوك)، والرواية تقوم على مثل هذه الشخصيات للتحرك بها دون قيد أو شرط، فهي شخصيات تكمل المشهد وتصنعه في أحيان كثيرة إنَّها شخصيات تُولَدُ أنَّى شاءت، وتموت أنَّى شاءت، فلا شروط مسبقة تتحكم بها. ولقد استطاع عبد الرحمن منيف في أرض السواد ومن خلال مجموعة من الشخصيات المتخيلة أن يقيم أوَدَ العمل، إنها شخصيات تحكي الحياة بكل ما تحمله من غنى وتعدد، ومن خلالها تغادر القصور إلى الشوارع الخلفية، وفي مثل هذه الأمكنة نكتشف الحياة التي كانت قائمة دون تزييف ودون فرض، إنَّ الصنَّاع الحقيقيين للأحداث مغيَّبون في أغلب الأحيان، وهذا ما تحاول الرواية التاريخية أن تتصدى له وأن تتولاه[١٤٥].

وهذا النوع من الشخصيات يكثر في الروايات التاريخية وغير التاريخية أيضاً، فهذا النوع من الشخصيات هو إطار في العمل الروائي، تدور الأحداث من خلاله ولكنه لا يشارك فيها مباشرة لاعتبار أو لآخر. ولكن قد تكون من أهم الأسباب التي دفعت كثيرا من الروائيين إلى أن يوظِّفوا الشخصيات التاريخية في أعمالهم توظيفا محدوداً جداً هو عدم الرغبة في التورط بما لم يكتبه التاريخ، ومن ثم الدخول في احتمالات و افتراضات فيما قالته الشخصية

---

(144) نضال الشمالي، **الرواية والتاريخ** ، ص ٢٣٣.

(145) عبد الرحمن منيف، **رحلة ضوء**، ص ٦٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أو لم تقله، ومع أن كثيرا من هذه الشخصيات اكتسبت دوراً فاعلاً في التاريخ إلا أنها لم تحظ بالدور نفسه في العمل الروائي، لأن القانون هنا يختلف، فمن كان بطلاً في التاريخ، قد يغدو شخصا ثانويا في الرواية، والعكس صحيح يصدق في ذلك، لأن القانون الفني هو الحاضر والقانون التاريخي هو الماضي، فضلا عن إعطاء الشخصية التاريخية تصاريح المشاركة بالأحداث قد يقلل من حرية الكاتب[١٤٦].

ومما يجدر ذكره هنا أُطر تحدد نوعية الشخصية في العمل الروائي وتشدّها إليها طوال المغامرة الروائية فتسمها بملمح واقعي اجتماعي ومن ذلك:

١- إطار مكاني ملموس تقصده الشخصية أو تنطلق منه: كالزقاق أو القهوة أو المطعم أو البيت أو المسجد.

٢- إطار زماني خاضع للمقاييس الفيزيائية الطبيعية المألوفة لدى الشخصية الموصوفة عندها بالمواقيت والظواهر الطبيعية كالفصول السنوية الأربعة، والفيضان.

٣- إطار قيمي يضبط للشخصية المبادئ والأخلاق ويوجهها إليها، ويحدد نظرتها إلى الآخرين ونظرة الآخرين إليها كإطار الدين، أو الإطار السياسي.

٤- إطار طبقي يحمّل الشخصية تصوراً في أفكارها ومواقفها وسلوكها عن وضعها الطبقي والفئوي وعن تطلعها إلى حياة البذخ والثراء والفقر والبؤس كطبقة الأغنياء، وطبقة الفقراء.

---

(146) انظر: جورج لوكاش، الرواية التاريخية، ص٣٢-٣٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وتُظهِرُ هذه الأُطر الأربعة "أن الشخصية الواقعية الاجتماعية/التاريخية تخضع في صورتها وتركيبتها القصصية لمحددات مادية، وأخرى فكرية وإيديولوجية صادرة عن تجارب الشخصية العملية وعن احتكاكها بالحياة اليومية[١٤٧].

وإذا كان السارد–الراوي– قد رسم ملامح شخصية الوالي والشخصيات الأقل منه أهمية بجودة ودقة شديدتين، فقد رسم ملامح شخصيات أرض السواد البسيطة –أي الجمهور من الناس– بالدقة والجودة ذاتها، وهنا يُظهِر الساردعديداً من الشخصيات الشعبية والبسيطة ليعبِّر من خلالها عن عشق المؤلف لأرض السواد ولشخصيات هذه الأرض.

إن مجمل الصفات التي قدمها السارد لرواد قهوة الشط وقاطني حي صوب الكرخ تهيئ السرد للحديث عن شخصيات بسيطة ومعبرة عن وجدان الإنسان العراقي، خاصة في بغداد، فإذا حلَّت مصيبة بأحدهم فإنهم يصبحون أسرة واحدة، وهذا بعينه هو ما حدث بدايةً من وقوع بدري في حب نجمة وانتهاءً بقتله، فهذا هو بدري يقص على سيفو كيف أنه أُغرِم بالراقصة نجمة التي أحيت مع غيرها الحفل الذي أقامه السيد عليوي بمناسبة النصر، ويَعْجب سيفو من أمر بدري، إذ كيف يقع في حب امرأة من هذا النوع، وتمر الأحداث ويكتشف بدري أن نجمة لا تعدو أن تكون امرأة تعطي نفسها بيسر إلى من يطلبها، وما أن قُتِلت نجمة حتى عاد بدري وقد قرر الزواج، وتتبارى النساء في إظهار مفاتن بناتهن، إلى أن يقع اختيار أم قدوري وهي أم بدري على زكية[١٤٨].

---

(147) انظر: نجوى القسنطيني، **الوصف في الرواية العربية**، ص ٤٨٨–٤٨٩.

(148) انظر: حاتم عبد العظيم، **أرض السواد .. أرض الناس**، ص ٢٦٦–٢٦٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وبعد مقتل بدري في الجنوب، وحين يلتف الناس حول والده الحاج صالح العلو حاملين همه وضعفه وشحوبه واعتزاله عن الناس يَظهر هنا تماسك أهل حي صوب الكرخ، حيث يتحول الحزن على بدري إلى حزن عام يلف كل الوجوه التي عرفته من أبناء الحي، هكذا يواجهون أحزانهم كما يواجهون أفراحهم[١٤٩].

ولأن الرواية هي أرض الناس أو أرض الشعب، فقد اعتمدت على عدد كبير من الشخصيات التي يمكن تقسيمها إلى شخصيات مرتبطة بالسلطة مثل: داود باشا، سيد عليوي، وعزرا أفندي، وناطق أفندي، ونادر أفندي، وشخصيات ترتبط بالبيوز(مبنى القنصلية البريطانية) مثل: ريتش وزوجه ماري، وميناس المترجم، وغيرهم من الشخصيات التي تتعاون مع القنصلية مثل روجينا.

وشخصيات تمثل شعب العراق، وهي أكثر الشخصيات من حيث العدد وأوفرها من حيث دوران الأحداث، وما يتعرض له الشعب من ضغوط طبيعية مثل، فيضان النهر، ومن أحداث عاطفية تثير الشجن والحزن، مثل مقتل بدري المرافق الأول للوالي، ابن الحاج صالح العلو، وغيرها من الأحداث.

والرواية تنهج نهجاً واقعياً يمزج بين الأحداث التاريخية الحقيقة والأحداث المتخيلة، فكان التهميش لبداية أولاد سليمان الكبير الثلاثة وأصهاره الأربعة، مستبقيةً داود باشا هذا الفتى الجورجي الأصل الذي يمثل العنصر الحقيقي في الرواية. أمَّا العنصر المتخيل فيتمثل في نسق الشخصيات الشعبية المفتوح، الذي يظهر على شكل حكايات متوالدة، فلكل إنسان حكاية يشارك الآخرين بها ولا يتنازل عنها[١٥٠]، وبذلك تَبني الرواية فضاءً شعبياً متعدد الوجوه هو

---

(149) انظر: حاتم عبد العظيم، أرض السواد .. أرض الناس ص ٢٦٦-٢٦٧.

(150) نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ص١٤١.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

فضاء بغداد في مطلع القرن التاسع عشر الـذي يحتـضن التـاجر والعـسكري والمـومس والجاسوس والجندي العاشق والمحاسب، والسقاء، وصاحب المقهى واليهـودي والمتـرجم، والمتدين والأغا والكيخيا، والأخرق والطفلة المشلولة ... إنها شخصيات تبني الحس الـشعبي والحس الشعبي يبنيها .

وفي أرض السواد يحرص عبد الرحمن منيف على إسناد البطولة الفردية إلـى الـشرائح الاجتماعية المتعاقبة بموازاة شرائح سياسية لها الحظ الأوفر في بطولة تلـك الروايـة، وقـد تمثلت البطولة الاجتماعية في: سيفو المحمود– وسيأتي الحديث عنه لاحقا– إسـماعيل أبـو حقي، الحاج علاوي، الملا حمادي، والحاج شلبي، وذنون الحاج حسين، ونابي خاتون، وناجي البكري، وروجينا، ونجمة، و رضوان قرة غولي، ومـدحت النعمـة، وعبـاس اسـطنبول، وبطرس يعقوب، وبدري العلو، وصالح العلو وقدوري، وعارف زنجاري... وغيـرهم مـن نجوم مقهى الشط، ومقهى مراد، ومقهى أبي خليل، ومقهى الكمرك، كما تمثلت ببطولة ببعض السياسيين والتي يمثلها داود باشا بجداره.

وهذه البطولة الفردية تتأكد في الرواية من خلال استمرار شخصية داود باشا حتى نهايتها، وهذا الاستمرار في البطولة الفردية يعد من أهم الدعامات التي قام عليها بناء الرواية وربـط بين أجزائها الثلاثة وحافظ على تسلسل أحداثها[١٥١]، وعليه فإنه لا توجد أحـداث مـن دون شخصيات تؤديها، وقد اهتمت الرواية العربية المعاصرة بالشخصيات التاريخية، في سـردها لأحداث تاريخية، فقد تعددت نماذج الشخصيات التاريخية تبعا لتعـدد الأحـداث التاريخيـة الموظفة، فثمة شخصيات تاريخية مثلت التحدي والمواجهة والنضال ضد قوى الظلم والقهر،

---

[١٥١] بشير الرشيد بوشعير، توهج ملّ الرماد، ص ١٥١.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library Yarmouk University

والفساد، وثمة شخصيات مثلت الحاكم الضعيف أو الحاكم المستبد، وثمة شخصيات مثلت الحاكم العادل:

- نموذج الحاكم الضعيف:

وظّفت الرواية العربية المعاصرة، نموذج الحاكم الضعيف الذي ينصرف إلى اللهو والمجون، ومن هذه الشخصيات أبي عبد الله الصغير، آخر ملوك الأندلس، في الرواية التاريخية (غرناطة) لرضوى عاشور.

- نموذج الحاكم العادل:

اهتم الروائيون بشخصية الحاكم العادل القوي، وإن كان نصيبه ضئيلا إذا ما قيس بنموذج الحاكم الجائر الضعيف، فثمة إشارة إلى شخصية عمر بن الخطاب في رواية هاني الراهب، (ألف ليلة وليلتان) وكثرت الإشارة إلى شخصية هارون الرشيد، وقد جاءت هذه التوظيفات في إطار تمجيد الماضي، والحنين إليه، هربا من الحاضر القائم الذي يفتقر إلى حاكم عادل[١٥٢].

وقد جاءت أرض السواد بما فيها من إشارات واضحة إلى أن الحاكم الموظف فيها روائياً وتاريخياً أقرب إلى النموذج الثاني، إذ كان الرجل متدينا وموفيا للعهد وللوعد غير فاسد وغير مفسد، وإن كانت تدور حوله بعض علامات الاستفهام حينما كان يُكثر الزواج والطلاق وما إلى ذلك ، وعدم التأثير في (عليوي أغا) لتركه الفسق والمجون.

وقد لامست هذه الرواية بعضاً من العادات والتقاليد المتجذرة في أذهان هذه الشخصيات الشعبية ولا سيما المتعلقة بالمنظور الديني لتلك الشخصيات، ويتمثل ذلك بالإيمان بكرامات الأولياء والصالحين وشخصياتهم وقدراتهم، ويتضح ذلك عندما تقرر العمة زاهدة أن تستعين

---

(152) انظر: عمر رياض وتّار، توظيف التراث، ص ١١٩- ١٢١.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

بالخضر حين عجزت عائلة صالح العلو عن اختيار عروس لبدري، وبعدها حارت الأم بين زكية ومديحه، فسكبت الحليب في صحنين وحددت لكل صبية منهما صحناً، وبيّتت الخيرة، ولم تشك لحظه واحدة في أن الخضر سيمر ويترك إشارة على أحد الصحنين، فتصبح صاحبته عروسا لبدري، "ومر الخضر تلك الليلة، وترك إشارة بارزة على صحن زكية... اعترف الجميع برؤيتها"[١٥٣]، وعملت العائلة بما أملاه الخضر، ولا أحد يعرف من حقيقة هذا الخضر[١٥٤]*، جلٌّ من يؤمنون به أنه نبي مرسل، أو ولي صالح، يستجيب الدعاء، ويساعد الناس إذا طلبوا المساعدة.

كما تقدم الرواية ولياً صالحاً آخرا، هو الشيخ عبد القادر، حيث يؤكد رزوقي الأعرج أن الله بشفاعة عبد القادر، قد نصر داود باشا، ويروي حكاية صاحبت ذاك النصر، فيؤكد أن ثلاثة زوّار زاروا مرقد الشيخ، فوضعوا عنده شموعا إجلالا له، وشكراً على دعمه داود، كانت ملابسهم من نور، ولهم أجنحة من غمام، أصواتهم كالهديل، وعيونهم كالقناديل، "كان كل واحد منهم يحمل ديكاً، ديك الأوّل أسود، وديك الثاني أبيض، أما ديك الثالث فلا يتذكر لونه، وقد دار الزوار وهم يدفعون الديوك إلى الأعلى حول الضريح، سبع مرات، ثم فجأة اختفوا"[١٥٥].

إنّ ما يلفت الانتباه في حديث رزوقي هو كثرة التفاصيل التي توحي أنّ الحدث قد وقع فعلا وأنّ المحدّث والسامع المفترضين مؤمنان بإمكانية حصول مثل هذه الأحداث، وبقدرة

---

[١٥٣] أرض السواد، ج٢، ص١٧٨.

[2] انظر: فراس السوّاح، **لغز عشتار**، دمشق، دار علاء الدين، ط٥، ١٩٩٣، ص ٣٤٣-٣٤٤.

* يرى فراس السوّاح أن الخضر لدى المسلمين، يشبه ماجورجيوس الأخضر لدى المسيحيين، إنه في المنظور الإسلامي نبي في كل مكان وزمان، محجوب عن الأبصار إلى يوم القيامة، وهو في المنظور المسيحي شبيه جداً بإله الخصب لدى الوثنيين. المرجع نفسه، ٣٤٣-٣٤٤.

[155] أرض السواد، ج١، ص٧١.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الشيخ عبد القادر على نصره من يشاء، لقد انتصر داود باشا، و كان نصره عظيمًـــا، ولكـــن العقل الشعبي أو الذهنية الشعبية لا تردّ النصر إلى كفاءة دواد باشا وقادته وجيشه، أو إلـــى الشروط السياسية المصاحبة، بل نجدها تبحث عن أسبابه في الغيب، ويظهر تأثير ذاك الوعي أو تلك الذهنية في تفاصيل الحكاية، لقد سجَّع رزوقي الكلام كي يشدَّ الأسماع، فتذعن القلوب وتؤخذ العقول، والنور هو رمز ديني مهم، الله ذاته نور، والغمام رمـــز الخـــصب والخيـــر، والطواف حول القبر يشبه الطواف حول الكعبة، ويساويه في العدد، أما الـــديك فهـــو رمـــز الحيوية، وصياحه علامة تشتت الأشباح الطائفة في أثناء الليل[١٥٦]، إنه ديك النصر الذي حل محل الأشباح الذين يمثلون أعداء داود باشا، إنَّه نصر نوراني إلهي تمَّ بفضل الشيخ عبد القادر الجيلاني الولي الصالح.

كما ظهر الإيمان بتأثير السحر والتنجيم حيث يتركز الإيمان بالسحر فـــي أرض الـــسواد حول شخصية بدري الضابط الشاب طالب الزواج، عندما تخرج من الكلية الحربية، صـــارت أُمُّهُ تخشى عليه من العين، وصارت تدفع الطعام والهدايا التي تجلبها له نساء المحلة لابنتيهـــا العازبتين، خوفا من أن تكون الأشياء مسحورة، بالقراءة عليها، أو بخلطها بمواد رابطة عـــن الزواج أو فاعلة في التأثير عليه من أجل أن يتزوج، إذ تحاول أم بدري أن تبعد تأثير ذلـــك عنه، وتأمل بأن تؤثر تلك الأشياء على ابنتيها فتتزوجان، فهي تؤمن بالسحر وتحاول توظيفه حسب هواجسها وآمالها على السواء، إنَّها واثقة تماماً بأنَّ نساء المحلة يجلبن الطعام والهـــدايا المسحورة للتأثير على بدري كي يتزوج من إحدى بناتهنَّ، وهي تمني النفس بان يـــؤثر ذاك السحر على ابنتيها بقدر حرصها على إبعاده عن بدري، إذ يكشف هذا السلوك عجز أم بدري،

---

[١٥٦] انظر: فيليب سيرنج، **الرموز في الفن، الأديان، الحياة**، ترجمة، ط٢، عبد الهادي عباس، داردمشق، دمشق، ١٩٩٢م، ص١٨٢-١٨٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وعدم قدرتها على التحكم في ماجريات حياتها، إذ تقف ضعيفة تماماً أمام حظ ابنتيها، مثلما هي كذلك حريصة وضعيفة أمام حظ ابنها بدري.

وعبَّر سيفو في الرواية نفسها عن مثل هذا العجز والإيمان معا، حينما أحبَّ بدري ذاته واحدة من بنات الهوى-نجمة- ولم يستطع أن يجد تفسيراً منطقياً لهذا الحب فردَّهُ إلى السحر "السحر...السحر مولانا، أي نعم السحر فهل يجوز أن يكون بدري مسحوراً ؟"[١٥٧].

لم يستطع سيفو أن يرى حب بدري لنجمة حُبَّاً طبيعيَّاً؛ لأنَّ بدري ضابط في السراي، وهي من بنات الهوى، كيف يمكن لضابط أن يحب داعرة؟ إنَّه السحر إذاً فقد لجأ سيفو إلى الغيب لتفسير ما رفضه عقله وعجز عن فهمه.

أمَّا تأثير التنجيم فيؤكد دارسو المجتمع المتخلف أن قراءة الطالع وكشف البخت، والتنجيم، وسائل يتوسلها الإنسان المقهور، لتلافي عجزه، ولإدخال الطمأنينة إلى نفسه[١٥٨]. ولكن في رواية أرض السواد ليس الإنسان المقهور فقط من يتتبع هذه الوسائل، بل كبار الرجال في السلطة أحياناً، إنهم يسعون إلى كشف الطالع ويقربون المنجمين لهذه الغاية، إذ اختلى داود باشا على -سبيل المثال- على الرغم من ذكائه وحنكته وحسن تدبيره لشؤون إدارته، في ليلةٍ بمحب الدين مرادي، كبير المنجمين، ليقرأ له الطالع وليستشيره، حول أنسب الأوقات لدخول بغداد، فقد دأب على استشارة المنجمين في أمور خطيرة، أو أقل خطورة وأهمية، لقد كانت الخطوة الأخيرة التي يقوم بها قبل اتخاذ قراراته استشارة محب الدين، "وكان أحيانا لا يكتفي

---

(157) أرض السواد، ج١، ص٤٤٩.

(158) انظر: مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، ص ١٦٨-١٧٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بمحب الدين مرادي، بل يستعين بغيره من المنجمين خصوصا في الأوقات الحرجة وكان لا يُقْدِم على خطوة كبيرة إلّا إذا أشاروا عليه"[١٥٩].

ما يثير العجب فعلا في هذا الأمر هو أن داود باشا كما تقدمه الرواية كان على قدر كبير من الذكاء والثقافة، والتضلُّع بالدين الإسلامي، وفي الوقت عينه ينزلق إلى الاستعانة بالمنجمين بإصرار ودون حرج، وفي الرواية عينها نجد نائب داود باشا الكيخيا يستعين بالمنجمين، وباشا السليمانية أيضاً، وتتمثل العامة في تلك الرواية في هذه الميدان بالعمة زاهدة، إذ تؤكد "أن العراقيين يعرفون من باض البيضة ومن زرع القمحة"[١٦٠].

ومن الشخصيات البارزة في رواية أرض السواد، شخصية سيفو المحمود، السقاء، ساقي العطاش، فلا يظهر سيفو إلا في آخر الثلث الأول من السرد ليدخلنا بصحبته إلى فضاء محلة الشيخ صندل في صوب الكرخ، فحضور هذه الشخصية هو حضور مفصلي في ربط خطي السرد الرئيس في المتن الحكائي، زمن التاريخ، وزمن الحدث السردي، وسيفو هو أول من يلتقيه بدري عند عودته الأولى من السراي، حيث عاد مولعاً بالراقصة نجمة وطلب من سيفو أن يدبر له مركبا و بلاماً يقوده في رحلة نهرية إلى موضع مقابل السراي كي يرى نجمة، لم يفهم سيفو تلك الليلة، بل حملنا معه في رحلة في ذاكرته على نهر دجلة استعدنا عبرها مداخل من حياته، ومن علاقته (بفطوم) زوجته، إذ يطفو المركب على النهر في رحلة سحرية تتبدى فيها بغداد كالعروس، وبدري هو العاشق الهائم، فارس الحارة وممثلها في السراي[١٦١]، "أحس سيفو أنه قضى العمر على الجرف، قال: سيفو لنفسه وهو يسألها ويفكر معها بصوت عالٍ

---

(159) أرض السواد، ج١، ص٢٥.

(160) أرض السواد، ج٢، ص٢٢١.

(161) انظر: ماهر جرار، عبد الرحمن والعراق، ص ١٨٠-١٨٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

يشارك تساؤلاته مع غيره: إذ الله سبحانه وتعالى حاسب البني آدم، حاسب واحد مثلي، وسأله: قل لي يا فلان شنو اللي شفته من ملكي؟ شلون كانت دنياكم، تونستوا؟ عشتوا؟ شراح تجاوبون؟ راح أقول لرب العالمين: يا رب أنت اللي خلقتني زمال، أنجس في الزمال، ومن عمري عشر سنين بين الجرف والشيخ صندل، أروح وأرجع تيتي تيتي، وبعدين أنت اللي عندك ملائكة، سجل محفوظ وكل شيء مقيد ومكتوب وتعرف أحسن مني، فأنت أعلم شلون عشت وشنو اللي شفته!"[١٦٢].

سيفو المحمود، هو أقدم مَن في الحي، فهو يؤرخ لهم بما يحدث معه، وملامحه الفيزيائية دالة عل ضعف وهزال شديدين، ومع هذا لا غنى عنه، لأنه حامل القِرَبِ، وساقي الماء، من النهر والشط، بات كل من يتصل به يعرف كل شيء عن الحي، لكنه يحفظ الأسرار أكثر من المختار، والأسطى إسماعيل الحلاق، وأبي حقي، وقد أدخلهما الكاتب فجأة في سياق السرد[١٦٣].

ورغم معرفة سيفو السقاء بكل الأخبار إلَّا إنه يتحاشى الحديث عن عزرا، أو الكيخيا، أو الأغا، لأنه يعلم المصير، لهذا يقول للحاج علاوي: "سألنا يا حجي عن الفقراء، عن أهل الله، هذول اللي نعرفهم: هذول إللي يستاهلون الواحد يسأل عليهم . نحن ياحجي ماشين الحيط... الحيط ونقول يارب الستر، أما الولاية وما يصير فيها فمو يمنا، فخلينا بهمنا، يرحم والديك!"[١٦٤].

يلاحظ أنَّ بعض الوحدات تحتمل موضوعا واحداً فرعيًا وربما تعالج شخصية عبر زمان ومكان مميزين، يستقصي خلالهما السارد معلومات وتحليلات تغيِّرُ في فهم الشخصية والمكان

---

(162) أرض السواد، ج٢، ص ٣١٣.

(163) مدحت الجيار، قناع السرد، ص ٢٥٦.

(164) أرض السواد، ج١، ص٤٢٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المحيط والزمان الذي يعيش فيه[١٦٥]، حيث تدور السردية حول شخصية مستقلة تـأتي للمـرة الأولى من الرواية، هي شخصية سيفو المحمود أبرز معالم صوب الكرخ وهي محلة الـشيخ صندل، إذ يحمل سيفو المحمود ملامح الشخصيات الشعبية البسيطة ذات الخصائص السحرية أو الخرافية أحياناً[١٦٦].

سيفو يعرف أخباراً كثيرة، لكنه يختلف عن الحاج علاوي وعن أبي حقي، فلا يجيـب إلا عن الأسئلة التي توجه إليه، وأغلب الأحيان تكون الإجابة بإيجاز شديد، ويتجنـب المبالغـة والتعريف، كما يمتنع عن ذكر الأخبار المسيئة، وإذا اضطر إلى ذلك نتيجة الإلحاح فإنـه لا يذكر الأسماء إذ يعتبر ذلك رأس الفتنة"[١٦٧].

---

(165) عبد الله إبراهيم، المتخيل السردي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٠م، ص٦٩.

(166) مدحت الجيار، قناع السرد، ص ٢٥٦.

(167) أرض السواد، ج١، ص٤١٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الباب الثالث: الفضاءات الروائية في رواية أرض السواد:

- فضاء الزمان.
- فضاء المكان.
- فضاء الطبيعة.
- فضاء الرحلة.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ـ الزمن:

إذا كانت الشخصيات والأحداث والسرد والحوار عناصر حيوية في بناء الرواية فإن للزمان والمكان دوراً هاماً في هذا البناء، فهما العمود الفقري الذي يربط أجزاء الرواية ببعضها البعض، وهما الأرضية التي تشد جزئيات العمل كله، وهما الساحة الكبيرة أو المسرح الذي يحوي الشخصيات والأحداث والفكرة ليشكلا مجال الحركة[١٦٨].

أما الزمن في الرواية فهو تعبير عن رؤيا تجاه الكون والحياة والإنسان، ومهمته تتمثل في خلق الإحساس بالمدة الزمنية الروائية[١٦٩]، فلفضاء الزمني في الرواية فضاء واسع يشمل كثيرا من الأوقات القصيرة أو الكبيرة وهو "كل معقد لا يمكن اختزاله إلى مجرد وصف للأمكنة والأزمنة، فهو فضاء حركة وحياة وبؤرة للتفاعل القيمي والاجتماعي، إنه يُسجل تارة عبر الحواس، وتارة يعكس حالات نفسية أو مواقف قد تكون مسبقة، كما يعبر عن صراعات محتدمة بين أركان الرواية، فنحن نتعامل مع فضاء اجتماعي وثقافي وانثروبولوجي إنساني، هو من مكونات السرد الأساسية[١٧٠].

أمّا في أرض السواد فيبتدئ زمن السرد بوفاة سليمان الكبير في شهر تموز/ عام ١٨٠٢م، وينتهي بمغادرة ريتش بغداد على متن سفينة البالیوز متوجهاً الى البصرة في ١١/أيار/١٨٢١م، وهذه التواريخ التي ذكرت مستمَدة من المصادر التاريخية، فالراوي لا يَذكر أي تواريخ في المتن الحكائي، إذ يقع زمن الحكاية التاريخية الكبرى ضمن إطار حدثين تاريخيين، بمعنى أنهما حدثا في الماضي التاريخي الذي دُوِّن في الكتب والوثائق، فيؤكد

---

[١٦٨] عيسى نوري قويدر، عبد الرحمن منيف روائياً، ص١٦٠.

[169] مها حسن القصراوي، الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت، ٢٠٠٤م، ص ٢٥.

[170] ماهر جرار، عبد الرحمن منيف والعراق، ص ١٥٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الراوي الموثوقيةَ التاريخية للمرسل إليه (القارئ) عبر إحالته المتعددة على هذه المصادر دون أن يحدد تواريخ ثابتة، تاركاً للمرسل إليه مهمة الحدس لذلك الزمن الطويل، ومهمة التدقيق في تلك الأزمان التاريخية.

هذا التشكيل التاريخي الطويل يعطي للراوي الضمني حرية أكبر في الحركة على مستوى متن حكائي يمتد على مساحة ثمان عشرة سنة وعشرة أشهر، فالقارئ لا يعرف المدة الحقيقية التي استغرقتها تلك الأحداث[١٧١]. فيبني الراوي الضمني زمن الحكاية الانتقالي والنسبي على شبكة من الإشارات والعلاقات الزمنية التي تعطي إحساسا باستمرارية هذا الزمن وتعلقه بالزمن التاريخي في اليوم الذي تلا وفاة سليمان الكبير.

يُبتدأُ الفصل الأول بتحديد أكثر دقة "وفي ليل الخميس من التاسع عشر من شباط اختلى داود باشا بمحب الدين مرادي كبير المنجمين"[١٧٢]، وغالباً ما تبدأُ الفصول بإشارة ما إلى مرور الوقت كأنَّ يُحدد زمناً "كانت قد مضت فترة سبعة شهور وبضعة أيام على إقامة بدري في كركوك"[١٧٣]، "بدخول تشرين الثاني لم يتغير الطقس وحده، تغيرت أشياء اخرى كثيرة أيضاً"[١٧٤]، أو أن ترد إشارات لفصول السنة داخل المتن الحكائي مثلاً: أيام الربيع، حصل هذا في منتصف الخريف، أو ربما في أواخره،"يتكرر الفيضان ربيعاً بعد ربيع"[١٧٥]، " قبل أن ينتهي الخريف عاد ريتش إلى بغداد"[١٧٦]، أو أن ترد إشارات لتكرار الأيام " بعد عشرة

---

(171) انظر: ماهر جرار، عبد الرحمن منيف والعراق، ١٥٥-١٥٦.

(172) أرض السواد، ج١، ص ٢٥.

(173) أرض السواد ج٢، ص٣١.

(174) نفسه، ج٢، ص٢٤٥.

(175) نفسه، ج١، ص٣٨٦.

(176) نفسه، ج٣، ص٣٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أيام من الركض المحموم"[177]، بعد أيام قليلة أوفد الباشا ناطق أفندي"[178]، "لم ترتفع الأسعار لمدة أسبوعين"[179].

تشير هذه العلامات الزمانية إلى زمن الرواية النسبي والإحساس باستمرارية الـزمن، إذ ينتج عن هذه الفضاءات الزمانية والمكانية للشخصيات التي تؤرّخ عبر إحـساسها الخـاص بتجاربها الوجودية التي قد تمتد الى أزمنة سابقة لزمن المتن الحكائي، ويتم استرجاعها عـن طريق التداعي والموّال والأغنية والحلم، وعبر تكثيف الجو السردي أو إشـغاله بالوصـف، وهذا ما يقود إلى المكون الثاني من مكونات (الكرونوتوب السردي*) وهو الفضاء.[180]

مع الأخذ بعين الاعتبار أن الزمن في الرواية التاريخية له خصوصيته؛ فالمـادة الأوليـة للرواية هي أصلاً تاريخ مثبت ومألوف ومحصور، وأن أي تسريع أو تبطيئ أو اسـتباق أو استرجاع أو تكرار في الأحداث لا بد له ما يبرره لأنّ الأصل مُدرك قبلاً. وقد تجلّت صـور الزمان في الرواية بتقنيات عديدة منها:

ـ الاسترجاع:

يشير مفهوم السرد إلى "تحول التجربة الإنسانية إلى بنى من المعاني التي تتخـذ شـكل الخصائص الثقافية المرتبطة بالزمان والمكان والناس والأحداث، ويعمل السرد على صياغة ما نريده بصورة تتجاوز حدود اللغة التي نتكلم بها"[181]

---

(177) ماهر جرار، عبد الرحمن منيف والعراق، ج٢، ص١٧٦.

(178) نفسه، ج٣، ص١٣٦.

(179) نفسه، ج٣، ص ٢٤٦.

* يشير هذا المصطلح السردي إلى تحالف الزمان والمكان في السرد، ماهر جرار، عبد الرحمن منيف والعراق، ص١٥٧.

(180) انظر: ماهر جرار، عبد الرحمن منيف والعراق، ص١٥٧-١٥٨.

(181) نفسه، ص ٢٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

مفارقة زمنية تعيدنا إلى الماضي بالنسبة للحظة راهنة، استعادة لواقعة أو وقائع حدثت قبل اللحظة الراهنة[١٨٢]، نرى الراوي أحيانا كثيرة يستعيد أحداثا وقعت ضمن الماضي زمن الحكاية الحقيقي، أي بعد بدايتها، وهذا ما يسمى بالاسترجاع بالمفهوم العام، ومن وسائله؛ التذكر والتداعي، ونُورد مثالاً يوضح ذلك " في اليوم الأول استراح سيد عليوي وخلال هذه الاستراحة استعاد الماضي كله، تذوق من جديد طعم الاهانات التي تلقاها من سعيد باشا، الاعتقال، ثم إصدار حكم الإعدام، والتهديد بالتنفيذ كل يوم، ثم تدخل البالیوز لتخفيف حكم الإعدام، وكيف رفض سعيد أول مرة ثم رفض في المرة الثانية، وأخيراً وافق مضطراً"[١٨٣]، فالأغا يتذكر ما حدث معه ويسترجع أحداثاً تعود الى ما قبل نقطة البداية في الرواية، وهنا تمنحنا هذه التقنية الزمنية لحظة تنوير في حياة هذه الشخصيات، إذ لم يتسنَّ للسارد التفسير وإثراء المعرفة فيما يقول السارد بعد مقتل سعيد باشا حاكم بغداد.[١٨٤] " فحين انصرف سعيد باشا للعناية بحمادي، أخذ أكثر جنود القلعة يفكرون ويخططون للنجاة بأرواحهم، بدأ الأمر بشكل فردي وسري ثم اتسع..."[١٨٥]، فالسارد هنا يهتم بتفسير وتأويل الهزيمة التي مُنِيَ بها سعيد باشا حاكم بغداد، ومن ثم خلعه عن سدة من الحكم. وقد يلجأ السارد إلى الاسترجاع لتوضيح أمر حان وقته، فلا يشعر القارئ معه بتغيير ماجريات السرد، لان الاسترجاع يكون لمواصلة السرد وليس لقطعه أو إيقافه ومنه: " ما كادت هذه الغمة تنقضي، وقبل أن يستقر الوضع لعلي باشا حتى بدأ الغزو الوهابي مرة أخرى كما يروي التاريخ، وإذا كانت لكل حرب أسبابها وذرائعها فقد اعتبر الملا عثمان – الذي قُتِلتْ زوجته وأولاده أمام عينيه أثناء

---

[182] جيرالد برنس، **المصطلح السردي**، ترجمة: عابد خزندار، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣، ص٢٥.

[183] أرض السواد، ج١، ص٣٥.

[184] نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ص١٥٨.

[185] أرض السواد، ج١، ص٥٤ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

غزو كربلاء – اعتبر الحرب ذريعة لان ينتقم"[١٨٦]، فالحرب وقعت وكان لا بد من ذكر السبب الذي يحتاج الى استرجاعٍ لبيان أسباب وقوعها والذي تمثل بذكر السارد للملأ عثمان ودافعه للحرب والانتقام.

وهناك من الاسترجاع ما ينقلنا فجأة ودون سابق إنذار نحو معلومة ماضية، قصد إهمالها وحان وقت ظهورها، كأن يبدأ أحد المشاهد بالحديث عن تاريخ إحدى الشخصيات التي بدأت مألوفة لدى القارئ لحضورها المبكر في الرواية، وفي المثال التالي يفاجئنا الراوي بعرض معلومات ماضوية عن شخصية ناهي زبانة – وهي شخصية ثانوية– عندما دخل عند روجينا للتحقيق معها: " وتُصِرُّ على الإنكار إلى أن دخل عليها ناهي زبانة –الكلام التالي يكون استرجاعاً– وناهي الذي ارتبط اسمه بالسراي منذ زيارته الأولى لبغداد، بعد أن تعرض هو وبطرس يعقوب للاعتداء، إثر خروجهما من قهوة الشط، تخلى بالكامل عن الأغا، وأخذ يعمل مع السراي، وقد أُبْلِغَ عن كل شيء وبالتفاصيل... وحين دخل ناهي ورأى روجينا غارقة بدموعها، قال لها بطريقة تقريرية باردة! ترى الجماعة يعرفون كل شيء"[١٨٧]، فإقحام الفقرة السابقة ــ من قوله وناهي الذي ... بالتفاصيل ــ يَظهرُ الاسترجاع الذي حان وقته ليفسر للقارئ تعاون روجينا مع ناهي.

ــ الاستباق:

وهو حدث أو ملحوظة أو إيحاء أولي يمهد لحدث أكبر منه سيقع لاحقاً، وقد يكون على شكل حلم أو حدث عابر مجزوء، والراوي هنا يقدم لنا تمهيداً ولو بالإيحاء إلى أن أمراً خطيراً سيلحق ببدري، أحد ضباط جيش الأغا في كركوك أثناء إعداد الأخير حركة

---

(186) أرض السواد، ج١، ص ١٨.

(187) انظر: نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، .ص١٦٦-١٦٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الانقلاب على والي بغداد داود باشا، " بعد تأكد الأغا من انقطاع علاقة بدري بالسراي أوعز لمرافقه حامد أن يتابع الرحلة معه، ليس فقط بإحاطته بجوٍ من الود والثقة، بل ومحاولة كسبه ليكون من (رجال الشمال)، كما أصبحوا يطلقون على هذه المجموعة، ثم عرض عليه حامد الالتحاق معهم للتمرد على داود باشا فلم يستجب بدري، وأراد أن يكون حيادياً، لكنه قُتِلَ يوم زفافه قبل أن يرى عروسه"،[188] وقد كان الراوي حريصاً على إيلاء اللحظات والأيام التي سبقت وصول عروسه عناية كبيرة، كي يُشعرنا بِعِظَمِ الخطر الذي ينتظره، فكان ذلك بمثابة توطئة لما سيأتي من أحداث رئيسية وهامة، فخلّفت هذه الأحداث حالة من التوقع والانتظار في نفوس المتلقين.

ـ المكان:

يعبِّر السارد عن أرض السواد من خلال العديد من الأماكن وما يتناوب عليها من طقس يرتبط بفصول السنة، والأماكن الكثيرة والمتنوعة في الراوية، حيث كان الراوي يتوقف بالوصف عند ملامح المكان الذي يتأكد في الذاكرة، بسبب فعل الشخصيات وأمزجتها المختلفة في هذه الأماكن، لذلك كان مصطلح الفضاء هو الأكثر دقة للتعبير عن الأماكن في علاقتها بالشخصيات، ومن ثم يأتي وصف السارد لأول الفضاءات المكانية وأكثرها شهرةً في الرواية وهي قهوة الشط، ذلك المكان الذي تدور فيه أحداث كثيرة مرتبطة بمن يعيشون في حي صوب الكرخ: " قهوة الشط ليست كأية قهوة أخرى في بغداد: كبيرة، متدرجة، بالغة البساطة والكثافة معاً، وإذا كانت مقاهي الأطراف الأخرى تماثلها ببعض الصفات فإنَّ ما يميز قهوة الشط ذلك الاتساع، ثم إنها دائمة التغير من حيث المزاج، تماماً كماء النهر، عدا عن أن فيها

---

[188] نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ص١٦٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أركانا وزوايا قوية وثابتة ليس بالجدران التي تنهض عليها، وإنما بالبشر الذين يحتلونها ويشكلون جزءاً من ملامحها مما يعطيها تميزاً إضافياً".(١٨٩)

إنَّ زوايا المقهى قوية ثابتة وهي ليست بالجدران وإنما بالبشر الذين يحتلونها، إذ هنا لا ينفصل المكان عن أفعال الشخصيات التي تشكل جزءاً من ملامح المكان؛ لذلك لا يظهر وصف المكان في مقاطع سردية وصفية تتعامل مع المكان بوصفه (ديكوراً) مكمِّلاً لعمله السردي، وإنما يظهر المكان باعتباره جزءاً لا يتجزأ من تكوين الشخصيات، وما تقوم به من أحداث أو مواقف؛ لذلك يأتي الكلام عن قهوة الشط في مقطع آخر من الرواية يصورها بعالم آخر وحياة مختلفة "مقدار كبير من الكلام، الذي يتخلله الاختلاف، ومقدار أكبر من الأحلام والغضب، ثم هناك مقدار من الجنون، أمَّا أعداد البشر الذين يَؤمون القهوة، وهي في أغلب الأوقات؛ ــ النهار كله ومعظم ساعات الليل ــ فإنَّها تكبر وتقل تبعاً لمزاج المدينة وما يقع فيها من إحداث".(١٩٠)

إذا أتى كلام السارد على صوب الكرخ فهو يقيم مقارنة بينه وبين صوب الرصافة، ليقدم لنا حيِّزَين متقابلين: أحدهما غنيٌّ له سمات جمالية واقتصادية ترتبط بمن يعيشون فيه، والثاني فقير؛ لكنه لا يخلو من سمات جمال ترتبط أيضاً بمن يعيشون فيه "إذا كان صوب الرصافة يفخر باتساعه وجمال أكثر أحيائه، وبوجود السراي والوالي، وبذاك الكم الكبير من أصحاب المقامات والأولياء والسوق التجاري الكبير، فان صوب الكرخ لا يشعر بالغضاضة أو النقص، كما لا يشعر بالخوف، صحيح أن قبور الأولياء الذين يرقدون في هذا الصوب لا تحمل زينة وقد تبدو فقيرة، لكن الأهمية كما يقول الكرخيون: لا تحددها الحجارة ولا تقاس بارتفاع

---

(189) أرض السواد، ج١، ص٢٨٧.

(190) أرض السواد، ج١، ص ٢٨٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الأضرحة أو كميات الشموع والبخور، إنها بمقدار ما تتركه النفس من أثر ومـا تولّـده فـي الذاكرة من حنين وأحلام".[١٩١]

ببساطة يكشف لنا القارئ ميل السارد وحنينه لحي صوب الكرخ، حي البسطاء، وان بـدأ الكلام عن أحد الحيين فإنه يرتبط بأهل الحي لا بملامحه المكانية "ما يفخر به أهل الكرخ تلك الروابط التي تجمعهم، رغم الكثير من النكد والمنغصات الصغيرة التي تقع كل يوم وتجعلهـم يثورون ويشتمون، ويقسم الواحد منهم ألّا يقول لخصمه المرحبا، الّا إنَّه في اليوم التالي ينسى أو يتظاهر بالنسيان مع تصميم أكبر مشفوع بأيمان غليظة ألّا يعود إلى مثل هذه الحماقات، أما إذا واجه الناس المصاعب وهجمت التحديات فإنهم يشعرون كأنهم أسرة واحدة، شخص واحد، وأي أذى يصيب أحدهم يصيب الجميع"[١٩٢].

تنقسم فضاءات بغداد بدَوْرها الى فضاء خارجي وفضاء داخلي: أما الخارجي فهو فضاء النهر والسوق والبساتين...، وأما الداخلي فهو فضاء المسجد ومقامـات الأوليـاء والبيـت، وجميعها ينفتح على فضاءات خارجية، فالمسجد والمقامات الدينية تنفتح على الفضاء الغيبي، فيما ينفتح البيت بناسه على الفضاء الاجتماعي، أما الباليوز والسراي فينفتحان على الفـضاء السياسي، وينفتح البستان والنهر وفيضانه والفصول الأربعة على الفضاء الطبيعي، فالنهر نهر دجلة ؛ دجلة الخير والموت والفيضان، وهو فضاء مركب الدلالات – سيأتي الحـديث عنـه لاحقاً-.

---

(191) أرض السواد، ج١، ص ٢٨٨.

(192) نفسه، ج١، ص ٢٨٩.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أمَّا الحارة: فهي محلة الشيخ صندل* في الصوب الغربي، صوب الكـرخ*. أمَّـا فـضاء السوق؛ فهو الفضاء البارز الذي يرتبط بسائر الأحياء والمحال، ويشكل شريان التجارة والحياة الاقتصادية، وشبكة متداخلة في النتاج الاجتماعي، إنه سوق مدينة تجارية ضاربة في القِـدَمِ تعيش في النصف الأول من القرن التاسع عشر في ظل دولة (دار السلام) التي بدأت تتآكـل أمام عظمة الثورة الصناعية ومجتمعاتها، لتغدو دار السلام مجتمعات هامشية تابعـة للـسوق الصناعي الجديد.

أمَّا فضاء المقاهي فيشغل حيزاً واسعاً من فضاء الرواية، فتقدم المقاهي فضاءات للقـاء الإنساني العابر أحياناً والحميم غالباً، والمقهى فضاء اجتماعي بامتياز، وهـو مـوزع بـين الحارات وعلى النهر، فيه يجلس الراوي وينشد على شجن ربابته قصص عنترة والزبير. في قهوة الشط والمقاهي الشعبية يجلس الصيادون والسقاؤون وأصحاب الحرف ومجاذيب الحي، وهو اجتماع يستدعي السَّمَرَ والمُزاح أو بث الشكوى والهموم، وفي المقهى يستطلع الجميـع نبض الحياة السياسية وحركة السوق، ومنه تنطلق الإشاعات كالقطط في أحياء بغداد(١٩٣).

وفي المقاهي تجري الصفقات أو تُحاك المؤامرات، وقـد ارتـبط المقهـى منـذ بدايتـه بالحركات المعارضة، فهو يعكس نبض الحارات والأحياء ونبض السوق، وفي الرواية نوعان من المقاهي من حيث الموقع الجغرافي والمواقع الاجتماعية: فقهاوي صوب الرصافة حيـث

---

* الشيخ صندل: الذي سُميت المحلة تيمناً به، هو عماد الدين صندل بن عبد الله الحسيني المقتفوي –نسبة إلى الخليفة العباسي المقتفي بالله– درس الحديث النبوي، وكان نقياً تقياً، ت ٥٩٣هـ، ١١٩٦م، في بغداد وله مسجد وسط الكرخ. ماهر جرار، **عبد الرحمن منيف والعراق**، ص١٦١.

* الكرخ: منطقة شعبية تقع جنوب/غرب بغداد، كانت قرية صغير ة منعزلة، يعبرها نهر عيسى، وازدهرت في العصر العباسي، وكانت الكرخ في القرن التاسع عشر منطقة مختلطة الأعراق، خاضعة كسائر الولايات ومنها بغداد لحكم الدولة العثمانية السني. ماهر جرار، **عبد الرحمن منيف والعراق**، ص١٦١.

(193) ماهر جرار، **عبد الرحمن منيف والعراق**، ص١٦٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

القلعة والسراي الباليوز هي أرقى نسبياً من قهاوي ذاك الصوب؛ صوب الكرخ الى الجنوب الغربي من الضفة الأخرى، ولا يذكر الراوي جميع المقاهي بأسمائها بل يكتفي بذكر مجموعة من القهاوي وينقل أجواءها، غير إنه يسمي بعض القهاوي، ففي صوب الرصافة ثمة قهاوٍ؛ كقهوة مراد وهي قريبة من السراي الباليوز، قد يجلس فيها القنصل في انتظار موعد في السراي أو الباليوز، وقد يجلس فيها ريتش لتأكيد حضوره.[١٩٤]

وفي صوب الكرخ قهوة أبو خليل وقهوة سبع بالقرب من الشريعة التي أقيم فيها في إحدى المناسبات احتفال شعري، أما القهوة الأكثر حضوراً وتالقاً فهي قهوة الشط، الأكثر ارتفاعا من كل ما حولها؛ تقع على الشط، وتُطِلُّ على السراي الباليوز في الضفة المقابلة، وربما تبدو لكثيرين أنها تماثل الباليوز، وقصر الوالي بالإضافة إلى القهوة الرئيسية_ قهوة الشط_ "وهي ليست كأية قهوة أخرى في بغداد..."[١٩٥].

هناك يلتقي رجال صوب الكرخ من الكادحين الفقراء: الملّاحين والصيادين والسقائين والحرفيين وأبناء المحلة في الجيش، وينضم إليهم المعلمون المهنيون : كالأسطة عوّاد- صاحب القهوة- والأسطة إسماعيل الحلّاق ومجاذيب المحلة كحسون الورد وزينب كوشان. والقهوة بؤرة اجتماع طوال ساعات النهار، تكاد لا تهدأ، والعادة أن يأتي إليها الكثيرون من صوب الرصافة حين تلتبس الأمور فيها، حيث يتكلم الناس بالتورية ويفهمون على بعضهم بأقل الكلمات، وخاصة عندما تدور الأحداث حول السياسة وشؤون البلد وعنجهية ريتش وقوته، أو عندما يزور القهوة رجال الجندرمية أو أحد الصرافين أو حين يلتقي فيها غرباء من جماعة الأغا وريتش، كلقاء ناهي زبانة وبطرس يعقوب، ولانّ القهوة تعبّر عن النبض الشعبي

---

[١٩٤] ماهر جرار، عبد الرحمن منيف والعراق، ص١٦٢.

[195] أرض السواد، ج١، ص٢٨٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

والسياسي لأهل الكرخ يُرسل إليها الباليوز رجاله كبطرس ومِيناس لبثّ الأخبار أو لتسقطها، كما يَسأل عنها داود باشا وينظر إليها من السراي ويرسل إليها رجاله.

ولناس قهوة الشط طموحاتهم وأمانيهم الوطنية، فهم يشاركون في المظاهرات ويقـودون الحملات الشعبية لدعم داود باشا، وترحيل ريتش، كما ويتحلقون حول مثقفـي البرجوازيـة الوطنية كناجي البكري، الذي درس الحقوق والأنظمة في اسطنبول، إذ يستمعون منـه عـن حلمه بـ (ثورة الشرق) ومناقشاته مع يعقوب حوحو الذي يعمل الآن مترجماً في القنـصلية الفرنسية، وكان في باريس أثناء قيام الثورة الفرنسية، وقيل أنه شارك في بعض الأحداث[١٩٦].

ولقهوة الشط فعاليتها وتحركاتها المكثفة في حياة ناسها، والتي تنطلق منها البدايات الأولى في جميع شؤون الحياة؛ فمنها ينطلق الناس بالتفكير في مواجه الفيضان الجارف، ومنها يبـدأ البحث عن عروس لبدري، ومنها يجري التخطيط للمشاركة في أحزان المحلـة وأفراحهـا، ومنها تبدأ حملة تجنيد أهل الحي للمشاركة في حملة داود باشا ضد عشائر الجنوب وغيرهـا الكثير من الفعاليات المحلية والرسمية.

وصوب الكرخ ــ كما هو الحال في جميع أنحاء بغداد ومحيطهاــ مليئة بمقامات الأولياء، وهذا يقودنا للحديث عن الفضاء الديني، فصوب الكرخ أكثر مناطق بغداد سكاناً ومن منابـت مختلفة، يسكنها الشيعة والسنة، والراوي الضمني غير معني في الواقع بهذه الشؤون ولا تهمنا هذه القسمة الطائفية هنا، إلا بما تخدمه في تسجيل واقع اجتماعي كان سائداً في تلك الفترة من حكم المماليك في ظل الدولة العثمانية، رغم جو التقوى العام والإيمان البسيط، فليس ثمة ذكر للطوائف سوى المسيحيين آو اليهود بما هم من أصحاب وظائف أو مناصب معينة في الدولة،

---

[196] ماهر جرار، عبد الرحمن منيف والعراق، ص١٦٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

فيما سوى هذا فالشعائر بما هي فضاء إنساني ديني، وفضاء المقامات الدينية يَشْغَلُ حيـزاً لا بأس به من فضاء السرد[١٩٧].

أمَّا فضاء البيت فيأخذ حيزاً خاصاً في الفضاء السردي، ففيه تتحقق الأفعال العادية اليومية والحميمية الخاصة[١٩٨]، وأفعال النتاج الاجتماعي: كالأكل والنوم والجنس والتنظيف وتربيـة الجهال، ونستطيع أن نقارن بين بيتين: بيت فطوم أو(فطيم) أم الغزل وزوجها سيفو المحمود أبي فلاح (السقاء)، والثاني بيت أم قدوري وزوجها الحاج صالح العلو، والديّ بـدري، ففـي البيت الأول أسرة فطوم التي أسرَّت في بعض حديثها لإحدى صديقاتها أنها" تريد أن تعـيش مع سيفو كما تعيش القطة مع أهل البيت" [١٩٩]، وفطيم حنونة، تفهم سيفو بحركة أو بلفتة يقوم بها، كانت تراقبه وهو يأكل، كانت في أعماق قلبها تحبه، لكنها تعتبر أن من الضعف، وربما من الخفة أن تُظهر له هذا الحب، أن تحوّله إلى مجرد كلمات أكثر من ذلك، كانـت تحـاول بعض الأحيان أن تتأمله، كانا يتساكنان مع الجوع في غرفة بـسيطة يتـصدرها (دوشـك*)، وبيتها مُشرَع على أبواب الحي يَلِجَهُ الأصدقاء، ويشارك في حياة الحي، أمَّا البيت الثاني فهو بيت أم قدوري والحاج صالح العلو؛ فهو أمْيَلُ إلى حالة اليسار، فالحاج صالح تاجر ميـسور، وبيته من أكبر البيوت في محلة الشيخ صندل، وأكثرها اتساعاً، وهو يتألف من باحة مفتوحة على السماء، فيها شجرة وزرع وطيور، وفي هذا البيت أخوا بدري الأكبر قدوري ونعـيم، وفيه العمة زاهدة.

---

(197) ماهر جرار، عبد الرحمن منيف والعراق، ص ١٩٦.

(198) شاكر النابلسي، **جماليات المكان في الرواية العربية**، المؤسسة العربية للدراسات والنـشر، بيـروت، ١٩٩٩م، ص٩٠.

(199) **أرض السواد**، ج١، ص٤١٧.

* الدوشك: النافذة الصغيرة.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ـ الطبيعة:

لقد انتصرت الطبيعة على الإنسان وقد ولّد هذا الانتصار عند الناس روح الثأر والمواجهة، فانبعثوا واتجهوا لبناء السدود ليقفوا أمام زحف البئية، إذ تمثل الطبيعة عنصراً أساسياً في حياة الانسان، فهو محاصر بعناصرها، ولا بد له أن يدخل معها في حرب بقاء واستمرار، فالانسان يصارع الفناء، ويكافح من أجل البقاء، يغالب الجوع ويتقي البرد، وحياته كلها حرب مع الموت، ولكن انتصاره يبقى مؤقتاً ، ثم يدحره الزمان الذي ما انفك يعمل في جسمه اتلافاً،[٢٠٠].

يلفُّ الفيضان النهري فضاء السرد بنفس الإيقاع الذي يضبط فيه حركة الناس، والفيضان كالموت مهما ابتعد فإنه بالغ القرب وشديد الحضور، وقد يأتي أبكر مما يقدر الكثيرون، وقد زمجر الفيضان مرتين مدمرتين في الرواية " قالوا: إن الأمواج كانت كالجبال، كانت ترى من بعيد، وكان يسمع لقدومها دوي هائل، وكانت تبدو مترابطة متعانقة مثل سلسلة لا نهاية لها"[٢٠١]، وفي مثل هذه الشدائد يلتمس الناس النجاة بأدعية يتوجهون بها الى السماء، ودولة المماليك تقف عاجزة أمام الفيضان، مشغولة بصراعاتها وفتنها ومؤامراتها، لا تلتفت للكارثة إلاَّ عند وقوعها وبلوغها باب القصد، فالحاكمون وبطاناتهم يَعْزُون كل شيء إلى القدر وغضب الرب، ويتقاعسون عن عمل شيء مفيد، فيما الناس منهمكون في عمل جماعي للحد من الخسائر ما أمكن، ولكن " ظلت المياه هكذا لساعات وساعات، وكل لحظة من هذه الساعات دهر بأكمله، امتداد لا نهاية له، وخوف ينغرز في العظام. وكل لحظة من هذه الساعات عجز وعيّ، وكأن الإنسان لم يعرف من قبل الحركة أو الكلام، وليس هناك رغبة

---

(200) عيسى قويدر العبادي، عبد الرحمن منيف روائياً، ص٤٨-٤٩.

(201) أرض السواد، ج٣، ص١٢٢-١٢٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

سوى النجاة، فإذ لم يُستطع فأن يأتي الموت، سريعاً وينهي دهر العـذاب الطويـل... ومثلمـا يحصل في كل مرة، تعرف المياه كيف تجد طريقها، وكيف تصنع هذه الطريق إذ لم يبـادر الإنسان إلى صناعته"[٢٠٢].

وتأتي صورة الفيضان جياشة بالحركة وأصوات الطبيعة، وأصوات الناس، وبغداد تعيش تحت رحمة المماليك وقوى الطبيعة، فيما الإمبراطورية البريطانية تخطط لجعل النهر صالحاً للملاحة.

ولم تكن الطبيعة هذه المرة رحيمة، فقد أرعبت بغداد بالفيضان العالي وأحيطت المدينـة بالمياه، وصعب على الناس الهروب ثم أخذت السدود تتهاوى أمام ضربات المياه المتواليـة، فدخلت المدينة وبدأت الدور تتساقط على من بقيَ فيها من الناس حتى قُدِّرت البيوت المتهاوية بألف بيت ، وهكذا أصبحت بغداد مقبرة للأحياء الذين كانوا يأملون الفرار من الطاعون ، ثم أخذ البدو يدخلونها والصعاليك والسُّرَّاق يسرقون وينهبون ما يجدونه حتى كان بعضهم يعاجله الموت أثناء السرقة.[٢٠٣]

ـ الرحلة:

تتعدد الفضاءات في أرض السواد وتتداخل في إيقاعاتها، فهناك فضاء القوة الامبريالية في صراعها على استعمار العراق بما يمثله من مزايا الجغرافيا والموارد، وهو فضاء فوقي يحيط بسائر فضاءات السرد التي تتداخل حوافها لتسهم في تشكيل بنية النص، ولعل فضاء الرحلـة يندرج في هذا السياق والذي يمثل متعة اكتشاف فضاءات جغرافية وإنسانية جديـدة، وثمـة نوعان من الرحلة في هذا المجال،الأولى: رحلة ريتش من المركز الإمبريالي، وهـي رحلـة

---

[١] أرض السواد، ج١، ص٤١٧.

[203] عزالدين يوسف، داود باشا، ص٥٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المُستَعْمِرِ بما تعكس من دلالات القوة والرغبة في المعرفة وفي اكتشاف فضاءات جغرافية جديدة لإلحاقها بعجلة الرأسمالية الآخذة بالتحول[٢٠٤]. والثانية: رحلة داود باشا من البلد البعيد – تفليس– من المكان الجبلي الريفي (الجورجي) إلى مركز مدني بحري (العراقي) هو ملتقى الحضارات.

فرحلة ريتش مآلها الباليوز بحدائقه الانجليزية الطراز، وبحيواناته المتنوعة من الأدغال والبراري، وبسفينته الحربية، التي ترقص في مياه المحيطات لتربط الهند بالمركز الاستعماري، وتتجه رحلة ريتش إلى الداخل الجغرافي والإنساني إلى الشمال باتجاه الأكراد والفرس والى التاريخ باتجاه الآثار والمخطوطات[٢٠٥].

أماً رحلة داود باشا فمآلها إلى السراي وعتبتها الباب العالي، وهو فضاء مغلق على مجتمع المماليك بصراعاته الإقليمية والمحلية ذات وجوه متعددة الطوائف والعشائر ومنغلق على مؤامراته وأحلامه[٢٠٦].

---

(204) ماهر جرار، منيف عبد الرحمن والعراق، ص ١٥٩.

(205) نفسه، ص١٦٠.

(206) نفسه، ص ١٦١.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الباب الرابع: البنية السردية:

- الراوي.
- التقنيات السردية.
- اللغة الفصيحة واللهجة المحكية.
- الخطاب الروائي.
- المثل.
- الحكاية الشعبية.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

البنية السردية:

أول من اجترح هذا المصطلح تزفيتان تودوروف عام ١٩٥٩م، بعد أن نحته من (narrative + logy)أي سرد + علم ليحصل على مصطلح علم السرد أو السردية ليحيل على أنه العلم الذي يُعنى بمظاهر الخطاب السردي أسلوباً وبناءً ودلالة، ويحيل السرد بوصفه المادة الأولية لهذا العلم على أنه: نظام لغوي يحمل حادثة أو سلسلة من الحوادث على سبيل التخييل، وهو فن تنظيم هذه المحمولات بوصفها شكلاً فنياً منتظماً بعلاقات وقواعد وأبنية داخلية تنظم عمل السرد، وذلك انطلاقاً من جذره العربي الذي يعني التنظيم وصولاً إلى المفاهيم الحديثة.

- الراوي في رواية أرض السواد:

يعدّ الرواي من أهم مكونات الخطاب السردي في العمل الروائي، "وذلك على اعتبار أن (الحكي) يستقطب عنصرين أساسيين، وهذان العنصران هما: الحاكي ومتلقي الحكي، أي الراوي والمروي له، و العلاقة بينهما قائمة-على ما يُروى(الحدث)، إنهما معاً عنصران خطابيان، فلا غرو أن نجد العديد من الباحثين الذين يودّون تقديم نظرية للسرد ينطلقون من هذا المكوّن، ويجعلونه مدار أبحاثهم ودراساتهم[٢٠٧]، وقد عُرِف هذا المكوّن بعدة تسميات وهي: وجهة النظر، الرؤية، البؤرة، حصر المجال، المنظور، التبئير وغيرها.

أمّا الراوي في أرض السواد ومنذ التمهيد الأول في الرواية، فهو ملم بالأحداث على مستوياتها المختلفة: الدولي والإقليمي والمحلي وهو يعلّق على الأحداث ويدخل إلى ضمائر الشخصيات، لينقل لنا قلقها وذكرياتها وطموحاتها، "إذ يستخدم اسلوب السرد الوثائقي الذي من

---

(207) سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، الزمن، السرد، التبئير، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط٢، ١٩٩٧م، ص٢٨٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

أهم ملامحه أنّه يستخدم أنماطاً اسلوبية متعددة، من أهمها: شكل اليوميات وهو كتابة يوميات البطل نفسه[٢٠٨]، غير أنه ــ رغم كلّ هذا ــ ليس راوياً متسلطاً، فهو يفسح المجال لشخصياته أن تَروي وتُخبر، ولعلّي أزعُم أن لكل حكاية راويها أو رُواتها المتعددين بحيث تُروى الحكاية بالسنة عديدة يفتحون أمام الراوي أبواباً لوجهات نظر متعددة، ولعل الراوئي سمع هذه الحكايات في المقاهي التي تملأ فضاء السرد، وهو ملم تمام الإلمام بشخصياته، يعرف تاريخها السابق، مُطّلِعٌ في أكثر الأحيان على دوافع أفعالها وعلى سرائر نفوسها ودواخلها، حتى على تلك الخصال الفسيولوجية العميقة التي قد تَخفى على الشخصية نفسها، "وللراوي شبكة من المخبرين الذين يَخْرجُون من قلب الصفحات، يروونُ ما سكَتَ عنه التاريخ الرسمي[٢٠٩]، خاصة وهم يحكون في المقاهي عمّا رأوه وسمعوه من وجهة نظرهم الخاصة، والراوي يفسح لهم المجال ويتواصل معهم وربما في بعض الأحداث يحاورهم[٢١٠]، كما هو الحال في قصة مقتل "سعيد باشا إذ يَرْوي أربعة رواة القصة، كل واحدٍ يرويها من وجهة نظره الخاصة، وبشكل مختلف عن الآخرين، ولكن الراوي يعرف هذه الحوادث والذكريات بلماحيته التي يُخبِر بها هؤلاء الرواة الفرعيين، وهي التي تقيم أوَدَ السرد.

فرجال (السراي) يروون "يروي رجال الباشا، ويسرفون في ايراد التفاصيل ... " وفيروز يروي: "كنت أوفي نذرا لأمي أن أسقي العطاش في مقام سيدنا عبد القادر لمدة ثلاثة أيام ..." وزهور تروي لروجينا: "هكذا روت القصة لروجينا في نفس الليلة، ومع كل أغنية يطلب منها الاقتراب وكان يرتجف ..." والضباط يروون عن الحملة العسكرية: "قال الذين رافقوا الحملة

---

(208) عيسى نوري قويدر، عبد الرحمن منيف روائياً، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٨٤م. ص١٣٣.

(209) صالح صلاح، سرديات الرواية العربية المعاصرة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص١٧٦.

(210) ماهر جرّار، عبد الرحمن منيف والعراق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٥م، ص١٥٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إن سيد عليوي لم يغيّر أيا من عاداته كان يشرب كل ليلة... قال بعض الذين يميلـون إلـى المبالغة ولا يكنُون الود لسيد عليوي إنه ترك لضباطه أن يتصرفوا... وقال الذين لا يميلـون إلى المبالغة إن السيد عليوي اجتمع بضباطه مرات عديدة..."، والعاملون في السرايا يروون: "يقول العاملون في السراي: إن نادر أفندي أبخل من كلب، وإنه لا يلبس الحذاء إلا حين يقابل الباشا وإنه يؤخر الغداء كي لا يتعشى..."، والناس يروون: "كان الناس جميعا يتحدثون عـن ثامر المَجُول كيف ينفعل وهو يغني؛ كيف يهدر صوته كالرعد مع الموال؛ وكيف يترنح ذلك الصوت ويصيح الاوف"، وبعد هذا الروي، يعرف الراوي كيف يسترد صوته فـي مطـالع الفصول، وفي مفاصل أخرى من مفاصل السرد، ليلتقط حركة الناس، وليصف أو ليخلص أو ليستبق الأحداث ويمهد لها.

وفي رواية أرض السواد لم يكن أمام الروائي إلا أن يُوظِّفَ راوياً عليماً لحمـل الأعبـاء الهائلة التي أوكلها المؤلف لمن يُسيِّرون الأحداث، فالرواية تهدف إلى استعراض حياة النـاس والسلطة في آنٍ واحدٍ على اختلاف طبقاتها ومراتبها، وهذا لا يتأتى إلا من خلال راوٍ مـرنٍ يمتلك تصريح الدخول على (السراي) و(الباليوز) و(قهوة الشط) ويمتلك تذاكر التسفر إلـى (كركوك والسليمانية)، وشمال العراق وجنوبه، ومع ذلك فقد سـمح الروائـي لكثيـر مـن الشخصيات أن تتحدث بطلاقة مرتين؛ في المرة الأولى عندما سمح للشخصيات أن تتحـدث بلهجتها الخاصة دون قيد، فبرز الحوار باللهجة العامية العراقية، وهذا ما أشعرنا غيـر مـرة بغياب الروائي عن الحدث، وفي المرة الثانية عندما كان يستضيء بآراء النـاس إذا وقعـت حادثة غير مألوفة، ".فيستمد من تحليل الناس لهذه الحادثة مصداقية فنية تُبرز مرونتـه فـي

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

إدارة أحداث الرواية وقد برز هذا في غير مرة في الرواية[٢١١]، فهو يقف كعين واعية، وأذن سامعة.

والراوي هو راوٍ عليم كلّي الحضور كلي المعرفة، وهو يتحرك بحرية في فضاءات السرد ويستطيع أن يكون في غير مكان في الوقت نفسه، كما أنه يعرف كل شيء عن الشخصيات، وبإمكانه أن يستقرئ بواطنها، ويقرأ أفكارها وحتى ضمائرها[٢١٢]، وهو بهذا يُظهر هيمنته على السرد ويحاول أن يوحي بالثقة، وقد أطلعنا الراوي ــ نحن القراء المتلقين ــ على مصادره، وهي مصادر كتابيّة تعود لزمن المتن الحكائي: كتب التاريخ، وكتب الرحالة، ومدونات الدبلوماسيين، "غير أن مصادره الكتابية تقع خارج النص السردي، ما يوحي بأن البنية السردية لهذه المصادر هي بنية مفروضة من قِبَلِ راوٍ أو رواة أُوَل (المؤرخين) على ماضٍ حدثي سابق على صياغته السردية"[٢١٣].

لقد اعتمدت الرواية في تقديم الرواية على سبر أعماق الشخصيات، ومن ثم معرفة ما يدور بداخلها والتعبير عن أحداثها وأحلامها وطموحاتها، وفي هذا السياق يصبح الراوي أكبر من الشخصية لأنه يعرف أكثر مما تعرف، فهو يعرف الأحداث قبل وقوعها، كما يعرف الأدوار التي تقوم الشخصيات بها في خفاء عن بعضها البعض، وهو يقدم لنا معرفة تفوق معرفة الشخصية، ولأن الراوي في هذه الرواية راوٍ عليم، فقد كانت تداخلاته بالتعليق أو التعبير عن أحلام الشخصيات ورؤاها، أو حكاية أقوالها، وما تهجس به نفوسها، كثيرة إلى الحد الذي

---

(211) نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، وزارة الثقافة، عالم الكتب الحديث، اربد، ٢٠٠٦م، ص٢٠٦.

(212) إبراهيم صالح، الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٣م. ص١٦٥.

(213) ماهر جرّار، عبد الرحمن منيف والعراق، ص ١٤٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

جعل المؤلف يمرر حِكَمَه وخبراته تجاه الحياة على لسان الراوي من خلال تعليقه على الأحداث أو تقييمه للشخصيات.

ويظهر الراوي صعوبة حُكم شعب كشعب العراق من خلال سرده لما يعتمل في صدرداود باشا وأفكاره بينما كان يسبح في رحلة الأماني "ولأن العبء كان كبيراً، كانت تراوده أحلام لاتخلو من غرابة في بعض الليالي، ماذا لو كان العراق في مكان آخر من العالم، ألم يكن حكمه أيسر؟ وماذا لو كان فيه بشر من طبيعة أخرى، ألم يكن ذلك أسهل؟ هكذا كان يحلم ويتمنى ويبالغ في بعض الأحيان ليصل إلى مدى، حين يعود منه يعود بفرح يشوبه بعض الحزن إذ يتمنى"[٢١٤]. إن قائل عبارة "كانت تراوده أحلام" هو الراوي القادر على معرفة ما يدور في ذهن الشخصية من أمانٍ وأحلام.

أمَّا عبارة " ماذا لو كان العراق..." فيمكن عدها مونولوجاً داخلياً، تهجس به الشخصية بداخلها، أما الجمل التالية لقوله" :يشوبه بعض الحزن..." فقد تدخل ضمن المونولوج أيضاً، لأنها كلمات الراوي التي تعبر عما بداخل الشخصية دون إشارة إلى أن الملفوظ ينتمي إلى أقوال شخصية "داود باشا "، فالراوي إذن هو الذي يُعبِّر بالكلمات عن الأفكار إذ يقول: "لو أن الشمس في بغداد أرحم وأقل توهجاً، لو أن الأرض لا تتملح بهذه السرعة أو بهذا المقدار، لو أن الأنهار تفيض في غير هذه الأوقات من السنة، إذ بدل أن تحمل مياه الفيضان الخير والبركة للزروع التي نمت، تحمل إليها اللعنة والدمار ... لو أن البدو أبعد، ولا يعرفون الطرق المؤدية للمدن، لو أن التاريخ أخف حملاً ولا يُجهض الذين يحملونه إلى هذه الدرجة، لو أن الذين يعيشون فوق هذه الأرض أقل مذهباً وأعراقاً وألواناً ... لو كان ذلك لما استطاعت

---

[214] عبد الرحمن منيف، أرض السواد، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط٤، ٢٠٠٤م، ج١، ص٣٠٩.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

اسطنبول أن تبقى وأن تسيطر"[٢١٥]، إذا كان هذا المقتطف يعبّر عن هواجس "داود باشا" وأمانيه، فإن الراوي يؤكد الطبيعة الصعبة لشعب العراق حين يعلّق على الأحداث "صحيح أن أهل العراق أصعب أقوام الأرض وأكثرها شراسة وجنوناً".

والراوي يقوم بتحديد ملامح الشخصية حين يضفي عليها بعض الملامح التي تضعها في إطار معين، كما أنّه يعتمد في إبراز صورة الشخصية لا على التعليق الخارجي فحسب ، بل من خلال ما تتلفظ به[٢١٦]، أو بالأحرى ما يسنده الراوي من فعل كلامي إليها، فالراوي يقدم "داود باشا " على أنه شخصية متدينة، فهي عكس شخصية الوالي السابق"سعيد باشا"، وهو يتمتع بهذه الشخصية الطامحة التي تتسم بالقوة والمهابة، كما لا تخلو من قدرة على لفت الانتباه إليها، على الرغم من أن داود يحب الشعراء ولهم منزلة عنده تفوق غيرهم بكثير، إلا إنه لا يحب طريقتهم في التفكير، فقد خُلق لكي يبني بلداً وينشئ دولة[٢١٧]، فهو "لا يكتفي بذلك فقط، فقد خُلق داود لا لكي يقول أبياتاً من الشعر وإنما ليقال فيه الشعر، خلق لا ليكتب التاريخ وإنما ليصنعه، وبعد ذلك يأتي المؤرخون ليقولوا، هذا ما صنعه داود باشا ويبدأون بالكتابة والتعداد إلى أن يتعبوا "[٢١٨].

إنّ طموح شخصية الوالي يتجاوز ما هو آنيّ، ليرسم للمستقبل حدودا، هو وحده القادر على إنشائها، ومن ثم هو القادر على تأكيدها في التاريخ.

وقد عُني الروائي بإظهار هذا الوالي الذي جِيءَ به من "جورجيا"، ثم تربى في كنف "سليمان باشا الكبير"، وعُنيَ بإظهاره في صورة إنسان يعتدُّ بالدين ويحكّمُ شرع الله تعالى،

---

(215) أرض السواد، ج١، ص ٣٠٩-٣١٠.

(216) عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٣م.

(217) عبد العظيم حاتم، أرض السواد.. أرض الناس، فصول، عدد، ٦٥، ٢٠٠٤م، ص٢٦٤.

(218) أرض السواد، ج١، ص٣١٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-YarmouK University

ويخاف من الآخرة، لقد أظهر الراوي هذه الصورة في مواضع كثيرة من الرواية، لذلك يسند الراوي إلى الوالي قوله: "المهم ألا ينسى الإنسان آخرته ولا بد أن يتذكر: وراء كل حياة موت، وما يفيد الإنسان إلا ما سعى، والسعي هو الذي يشفع ويوسع القبر، ويخفف الحساب ويقود إلى الجنة"[٢١٩]، هكذا يخاطب داود باشا كاتبه، وهو في حقيقة الأمر يخاطب نفسه، إذ يسند له الرتوش النهائية لصورة الوالي المتدين حين يذكر كيف أنه أصبح يتطرق لمواضيع مرتبطة بسِيَرِ المتصوفة وشعرائهم، و تلاوته للأوراد التي جعلته يشعر كأنه بلا وزن ويكاد يطير، "فقد أصبح أكثر ميلاً إلى إطالة السهر، مع ضيوفه والتطرق إلى موضوعات متعددة بما فيها سِيَر المتصوفة وأشعارهم، أكثر من ذلك شعر الباشا أن صلواته والأوراد التي يرددها أخذت تُدخِل الطمأنينة إلى قلبه"[٢٢٠]

وقد اختفى المؤلف في صوت الراوي العالم بأحداث جميعها، يُحدِّث ويبوح بكل ما يموج داخل شخصياته، ما جعله يستخدم الضمير الغائب (هو) في الحديث عن ملامح الشخصية الجسدية والنفسية والاجتماعية والسياسية، وركَّز المؤلف على شخصية بطل الأحداث"داود باشا " الحاكم المنتصر المؤيَد من الدولة العثمانية، وأصبح البطل مُفتتح المشاهد و بُؤرة الاهتمام، وكلما مرت الأحداث اكتسب البطل سطوة أكبر وخبرة أعلى بأصدقائه وبخصومه وجنوده، وأخذ يفكر باستمرار في طرق تنفيذ الأحكام على خصومه، وكيفية القبض عليهم أحياء، ليعترفوا بمواطن الثروة والسلاح، وأسرار الحكم، إلا إن المؤلف حبك خطته للأحداث، فلا يصل الحاكم البطل إلى جوابٍ شافٍ عن "سعيد باشا " ثم يَقتُلُ له"حمادي " وهو مستودع الأسرار، ويساعد في فرار "ابن الشاوي" في خطة ناجحة ساعدت على التشويق، إلا إنها

---

[219] أرض السواد، ج١، ص١٥٥.

[220] نفسه، ج١، ص ٢٥٦.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ساعدت على تضخيم عدد صفحات الرواية في الوقت نفسه، إذ إنه كان يفسح المجال لرواة آخرين يجتهدون في اكتناه أسرار بعض الظواهر أو الأحداث، ويسلطون الضوء على ملابساتها، ولكن هؤلاء الرواة "الثانويين "غالباً ما يدورون في حلقات التخمين والافتراض أو الادعاء الأجوف والمزاعم الملفقة[٢٢١].

ويمكن أن نتمثل عدداً كبيراً من المواقف الروائية التي يلجأ فيها الكاتب إلى بعض الشخصيات الثانوية في سرد الأحداث، ففي الجزء الأول وعلى لسان"خورشيد "وهو من أعوان "السيد عليوي "عن تفاصيل اغتيال "سعيد باشا": "قال خوررشيد ... يا جماعة، وما أكذب عليكم، صار قلبي يرفرف ووقع بين رجلي، كنا رايحين لموت مؤكد وضحكة "الآغا " شبر ! وما أدري صحت أو توهمت روحي أصيح: وين رايحين يا معودين؟ لكن لما "الآغا " باوع علينا، وخنزر صارت سنطة، وكأن الكل موتى، وطب وطبينا على "سعيد "وبلمح البصر خلص كل شئ ، قال "الآغا "يا الله لازم نمشي!" [٢٢٢].

وفي الجزء الثاني من الرواية يقول:"حسون الورد" عمّا شاهده من موكب "الباليوز " الذي كان يستهدف إدهاش العامة من الناس وإثارة فضولهم، وخاصة عندما رأى "حسون" زوجة القنصل وهي تمتطي صهوة جوداها : "وزفر كأنه جريح، ثم تدفق: مشى موكب الباليوز، وكل الناس وراهم، وما إن وصلوا يمّي وقفوا، هي اللّي وقفت وقالت لرجلها باوع وتباوع عليّ وضحكتها صارت شبر!..." [٢٢٣].

---

(221) الرشيد بشير بوشعير، توهج ملّ الرماد في ثلاثية " أرض السواد"، دراسة في رواية عبد الرحمن منيف، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الامارات العربية المتحدة، العين، شؤون اجتماعية، ع٨٦، سنة٢٢، ٢٠٠٥م، ص١٢٥.

(222) أرض السواد، ج٢، ص ٣٨.

(223) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٠٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كما يتدخل عدد من الرواة كي يفسروا ملابسات موت"نجمة": "في ليلة أخرى، عندما تطرق الحديث إلى نجمة من جديد، أكّد حامد أنه لا يستبعد حتى"طلعت بك "نفسه، لأن الرسول الذي بُعث وراءه، كان يقدر أن يجده في "جمجمال"، وجده في "كورة هجير " وحين أُبلغ بالأمر لم يبدُ عليه الاستغراب، كأنه لم يُفاجأ، أما مظاهر التأثر التي بدت عليه لاحقاً، فكانت عابرة ومصطنعة ..." (٢٢٤).

واللافت للنظر أن الروائي في كثير من الأحيان كان يوظِّف هؤلاء الرواة الثانويين للإيحاء ببعد الشعب عن مظاهر الحياة المرفَّهة، وعمّا يحدث في الجانب الآخر من النهر حيث القصر الذي تُحاك فيه المؤامرات ضد الوالي "داود باشا".

ويكفي أن نُحيل على ما كان يُروى في مقاهي بغداد من الإطاحة بالوالي "سعيد باشا" واستيلاء "داود باشا" على القلعة: "الذين يؤكدون أن حصيلة الاشتباك هو مقتل سعيد، يشيرون إلى أن المهاجمين لم يكتفوا بقتله بل وأخذوا رأسه أيضاً وحملوه معهم، وكادوا يغادرون القلعة كما دخلوا"، أو نُحيل على ما كان يُروى عن علاقة داود باشا بالباليوز: " يقول بعض من يعرفون أن الباشا كان يريد أن يشعر القنصل، ومنذ البداية، أنه غير مَدين له بأي شئ، لا بل القنصل هو المدين له، وقد حان الوقت للمعاقبة، من خلال التجاهل، بعد أن جعل الباليوز وكْراً لكل الذين يُعادون الباشا، وليس أقسى من إهماله وتأخير استقباله! ..."(٢٢٥)

ويبدو أن الروائي أراد أن يستوحي أساليب "ألف ليلة وليلة" حيث نرى الراوية الرئيسية "شهر زاد" وعدداً كبيراً من الرواة الثانويين الذين نعرفهم في سياق السرد، وبذلك تتعدد الحكايات، وتتوالد بشكل عجيب، ويكفي أن نستشهد على هذا الأسلوب بالحكايات التي كانت

---

(3) أرض السواد ، ج٢، ص٢١١.

(225) المصدر نفسه ، ج١، ص١٠٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

تُروى في مركب " أبي منعم " صديق "سيفو المحمود" في أثناء الجولة الليلة عبر النهر: "رد أبو منعم بنوع من التسليم :غُنا أغنّي شقد ما يساعدني صوتي"، وبعد قليل وبأسف: لو عرفت إنه الكم واهس بالغُنا، كان جبنا ويانا ملا لطيف، لأنه وحده يضبط المقام ويثوِّر الدنيا. أما وحدي، وبليا دنبك ودف، فما أدري شيصير:

ـ اللّي الله يقدرك عليه !

هكذا علق سيفو ليمنع أي تردد ...[٢٢٦].

وإذا كان الراوي الرئيس يسرد الأحداث بطريقة حيادية، فإنه يتدخل أحياناً كي يعلق على الأحداث على نحو ما فعل في سياق سرد أحداث تدبير المؤامرة لاغتيال سعيد باشا من قِبَلِ "السيد عليوي": "لكن البصيرة في أحيان كثيرة تُعمى أو قد تفقد قدرتها على التبصر، وكما أن اليائس يمكن أن يتحول إلى وحش، وقد تغريه أية بارقة أمل، وهذا ما حصل تماما، إذ ما كاد "عزمي " يعود وقد تهللت أساريره، حتى أدرك عليوي أن لحظته قد حانت ... [٢٢٧]

والراوي لا يكتفي بسرد ما حدث عند اغتيال "سعيد باشا" وإنما يحلل نفسية الجاني "سيد عليوي "ويُسوِّغُ تصرفه من الوجهة السيكولوجية .

- التقنيات السردية:

أُفتتح السرد الروائي في هذه الرواية بحديث بعض ما جرى، وبعض ما جرى يُبتدأ بـ"لما حضرت سليمان الكبير الوفاة"، أي في السابع من ربيع الآخر(تموز) سنة ألف ومئتين وسبعة عشر (١٢١٧)هـ، ألف وثمانمائة واثنين (١٨٠٢م) [٢٢٨].

---

[226] المصدر نفسه، ج١، ص٤٦٩.

[227] أرض السواد، ج١، ص١٠٥.

[228] ماهر جرّار، عبد الرحمن منيف والعراق، ص ١٣٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويصرح السارد في أكثر من موضع من هذا التمهيد بمصادر معلوماته فهو يقول في معرض ذكره للحركة الوهابية في الجنوب "كما يروي التاريخ"، وهو يصرح ببعض الجمل بين قوسين تنصيصين " "، مما يُوحي أنها تُنقل حرفياً عن بعض المصادر التاريخية، وهذا ما يوحي بها صياغتها أحيانا، وهو يبدو نقلاً عن كتاب تاريخ، وهو أيضا مصدر مباشر يوحي بالثقة لاطلاعه على مجريات الأمور في البلاط وخفاياها. ويحدد لنا الروائي أحد مصادره وهو "ابن سند" ينقل عنه جملة واحدة بين قوسين تنصيصين وهو التمهيد بعنوان "حديث بعض ما جرى"، وهو بمثابة تمهيد تاريخي، لخَّصه الراوي من مصادر متعددة ليفتَتِح به السرد والحكايات[٢٢٩].

لقد استخدم "منيف" ضمير الغائب في عملية السرد، وأعطى لصوت الشخصية الفرصة أنْ يتحدث بضمير المتكلم أحيانا، أو بضمير الخطاب، وفي الموروث العربي الشعبي فإن ضمير الغائب يكون مسيطراً على النصوص السردية، فالبعد الحادث بين (هو) المستدعي و(فعل الكتابة) وهو البعد الذي يحمي السارد والمتلقي على السواء من الرفض والقبول بلا سبب، بل يُظهر السارد والمتلقي من المشاركة في الأحداث وأن كانت تخالف قناعاتها[٢٣٠]، ومن ثم يكون الزمان والمكان والإنسان أبعاداً نسبية في النص، تجعل النص كله حدثا تاريخيا خاصاً، أو اقتراحاً من المبدع للمتلقي، ومن ثم يصبح النص كلّه قناعاً سردياً يتخفى وراءه المبدع الحقيقي والشخصيات التاريخية، ليكون تأثير النص تأثيراً مختلفاً، من خلال نص مباشر، ولغة تساهم في الإقناع والمتعة والمعرفة في آن واحد [٢٣١].

---

[229] ماهر جرّار، عبد الرحمن منيف والعراق، ص ١٣٤.

[230] انظر: مدحت الجيار، قناع السرد في أرض السواد، فصول، عدد٦٥، ٢٠٠٤م، ص ٢٤٨ــ٢٥٠.

[231] نفسه، الصفحة نفسها.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ويعتني السارد بالتفاصيل المتشابكة الأمر الذي يحتاج من المتابع أن يرسم خريطة الأحداث والشخصيات والرحلات، وبسبب العناية بالتفاصيل يظن القارئ أن حركة الأحداث متوقفة في كل وحدة على حدة، بل ويمكن اجتزاء بعض الوحدات لتكون رواية مستقلة[٢٣٢]، وإنما وعي المتلقي بطبيعة الرواية التاريخية السياسية ذات الأجزاء "وأنها تقوم على طول النَفَس، وتحتاج إلى الصبر حتى لا تقلب خيوط السرد وتتعقد شبكة المعلومات[٢٣٣].

ـ التقنيات السردية المتبعة في الرواية.

يتنازع الرواية التاريخية مرجعيتان: الأولى حقيقية متصلة بالحدث التاريخي، والثانية مقترنة بالحدث الروائي وبتلبية المرجعية الأولى، يعني تحقيق المصداقية الوثائقية وتنفيذ متطلبات المرجعية الثانية، وهي المصداقية الفنية، ولعل اجتماع المصداقيتين هو مطلب الرواية التاريخية الأول[٢٣٤]، وحتى يكون ذلك فلا بد للمعلومة التاريخية من طرق وتقنيات تَعْبرُ منها إلى عمق الرواية وكيف يستثمر الكاتب الأحداث التاريخية، أي ما هي التقنيات السردية المتبعة في عرض المعلومة التاريخية المستعارة لغايات إبداعية تأويلية؟ وفيما يلي، ذكر لهذه التقنيات السردية[٢٣٥]:

---

(232) صلاح فضل، أساليب السرد في الرواية العربية، دار سعاد الصباح، الكويت، ١٩٩٩م. ص١٧٥.

(233) انظر: مدحت الجيّار، قناع السرد في أرض السواد، ص ٢٥٣ــ٢٥٤.

(234) مدحت الجيّار، قناع السرد في أرض السواد ، ص٢١١ــ٢١٢.

(235) نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ٢١٢ــ ٢١٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

_ التقنية الأولى:

وهي سرد مجموعة من الأحداث التاريخية المتتابعة في مطلع العمل الروائي بقلم المؤرخ وهي بمثابة تمهيد لماجريات تاريخية تشتغل عليها الرواية[٢٣٦] ومن ذلك ما جاء في بداية أرض السواد تحت عنوان فرعي "حديث بعض ما جرى": "لما حضرت سليمان الكبير الوفاة، بعد أنّ ظل والياً لبغداد اثنتين وعشرين سنة، جمع أولاده الثلاثة: عيد وصالح وصادق، وجمع معهم أصهاره الأربعة"[٢٣٧].

لم يكد سليمان باشا يلفظ أنفاسه ــ وقيل إنّ ذلك تم قبل ساعة من الوفاة ــ حتى جمع رئيس الإنكشارية أحمد آغا من استطاع جمعهم من الرعاع والسوقة واستولى على القلعة.

وفي اليوم الذي تلا وفاة سليمان الكبير نودي في بغداد باسم علي باشا والياً، فأعطى الباشا الجديد الآمان .

ـ التقنية الثانية:

عرض المعلومة التاريخية من خلال انعكاسها على تصرفات الناس وسلوكياتهم وظهورها في حوارهم، وتعد هذه الطريقة من أكثر الطرق انسيابية في عرض المعلومة حيث الشخصيات هي التي تتأثر وتحكم وتعاني وتفرح دون تدخل سارد يوقف الحديث عند موضع ليسرد تاريخاً حان دوره، ثم يستأنف، ولكن هذه الطريقة تمتلك القدرة على تفعيل الخطاب الروائي بين الشخصيات والخطاب الفني في إدارة هذه الحوارات وانتقاء ألفاظها فتتحقق بذلك الموازنة بينهما، ومن الأمثلة على هذه الطريقة، هذا المشهد الحواري والذي يجمع بين القنصل

---

[236] نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ص٢١٣.

[237] عبد الحميد المحادين، التقنيات السردية في روايات عبد الرحمن منيف، ص٢٤٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

البريطاني(ريتش) وزوجته (ماري) ويدور هذا الحديث حول الآثار التي شاهداها في شمال العراق:

في هذا الليل قالت ماري لـ ريتش بنوع من الرجاء الأقرب إلى التوسل:

- قد أكون مجنونة أو أصبحت مهووسة بهذه الأشياء الرائعة... وامتلأ صوتها بالحزن .

- هل تتصور يا(كلود) أننا قادرون على مغادرة هذه البلاد، وترك هذه الأشياء وراءنا بحيث لا نستطيع أن نراها مرة أخرى؟

- ردَّها في محولة لمنعها من مواصلة الحزن :

وسوف تتاح لنا فرص كثيرة لرؤيتها.

وبعد قليل وكأنه يفكر بأشياء كثيرة معها.

إذا لم يكن كل سنة، فحالما نملك وقتا أو ظروفا مؤاتية.

سألت (ماري) بتردد وشاب صوتها نغم اليأس :

ألا نستطيع أن نرحّلها؟ أن نحملها إلى هناك، حيث يجب أن تبقى إلى الأبد ..."[٢٣٨].

والمشهد الحواري السابق بأسلوبه التبادلي الفعال يكشف لنا معلومة غاية في الأهمية لم يذكرها السرد مباشرة بل سيقت من خلال الحوار فنطقت الشخصيات بلسان حالها، إذ إنّ الآثار في العراق تحولت إلى مطمع الطامعين، والانجليز هم أعداء الأرض والآثار على حد سواء، ويفكرون بطريقة خيالية تدعو إلى سرقة الآثار ونقلها إلى بلادهم، ويبدو أن الاقتراب أكثر من الشخصيات يبيّن لنا ما نحسه ونشعر به، فتنهال الحوادث في حواراتهم[٢٣٩].

---

[238] أرض السواد، ج٢، ص ٧٦-٧٧.

[239] نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ص٢١٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

التقنية الثالثة :

وفيها يُروى الحدث التاريخي أكثر من مرة ولكن في كل مرة تتولى أمره مجموعة من الشخصيات يعالجونه بطريقتهم الخاصة فتظهر للخبر أكثر من زاوية في الرواية، ما يساعد على تبلور الحدث التاريخي واتضاح معالمه بشكل أكبر، فضلا عن أن هذا اللون من تقديم التاريخي في ثوب السردي يخفف من حدة المسؤولية التاريخية المنوطة بالراوي، ونذكر المثال التالي من الرواية التي شاعت فيها مثل هذه الظاهرة - ظاهرة تكرار السرد - حيث كان مجال الحديث خبراً تاريخياً والخبر التالي يتردد ذكره على ألسنة الناس، فيرويه كل واحد بطريقته مضيفا أو مضخما أو منتقصا[٢٤٠]. إنه خبر مقتل سعيد باشا والي بغداد المخلوع الذي قُتل عام (1817) وحيثيات هذا القتل ويبدو ذلك في" في الكرخ وفي قهوة أبو خليل يتجمع عدد من رجال سليمان الغنّام فإن كل واحد من هؤلاء الرجال، وحين يُسأل عما حصل في القلعة (مكان مقتل سعيد باشا) تكون إجابته مطابقة أو مقاربة لإجابة الآخرين : يقول هؤلاء الرجال : هم تركوا القلعة في وقت مبكر، تركوها قبل أن يدخل داود باشا بغداد بأيام، ربما تركوها لأنهم لم يعرفوا من هو الوالي، ومن له الحق في إصدار الأوامر، ليس ذلك فقط بل كانت الأوامر تنفذ بين لحظة وأخرى... ويتبرع واحد من الجالسين لكي يقول إن الرواتب لم تدفع منذ شهور ...هكذا تركوا القلعة دون أسف ...ويؤمن آخرون على صحة ما يقال، كي لا يظن أن لهم علاقة أو يتحملون أية مسؤولية...[٢٤١].

والمقطع السابق كما نرى هو تمهيد لرواية مقتل سعيد باشا، والراوي هنا يظهر براعته في سرعة نقل الحدث من مكان إلى آخر: "يقول رجال الغنام بانفعال أن لا أحد يستطيع أن

بد الرحمن

ـال الشمال

(240) انظر: نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ص ٢١٨-٢١٩.

(241) انظر: أرض السواد، ج١، ص ٥٦-٥٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

يدافع وأن يحمي مثلهم، كانوا لا يسمحون حتى للطير أنَّ يعبر فوق القلعة حين كانوا فيها ...إمَّا أن الحرس كانوا نياما أو متساهلين، وأن تقع مثل هذه الأحداث الخطيرة ولا يستطيعون منعها فهذا يؤكد صحة الموقف الذي اتخذوه بالانسحاب في وقت مبكر...[٢٤٢]، ما سبق يقدم السارد رؤيته من جانب الحراس الغاضبين الذين انسحبوا من مكان الحدث قبل وقوعه لعدم رضاهم عن ماجريات الأمور.

كما نجد رواية ثانية للخبر نفسه، ففي المحلات الأخرى بصوب الكرخ تتردد القصة ذاتها، أو ما يشابهها باختلاف بسيط في بعض التفاصيل تقول القصة: "إنَّ حراس القلعة كانوا نياما لمَّا تسلل عدد من رجال داود واستطاعوا الوصول إلى الجناح الذي يقيم فيه سعيد باشا ودون صوت، دون أن يحس بهم أحد، اقتحموا غرفته وهناك حدث الاشتباك ولا يعرف ما إذا قتلوا سعيد أو أسروه"[٢٤٣] حين تُروى القصة بهذا الشكل تترك احتمالا أنَّ سعيد لم يُقتل ولا يُعرف إذ سيسلم نفسه أم سيقاوم.

وفي مكان آخر في محلة الميدان هناك إضافات جديدة على هذا الحدث، "سكان محلة الميدان يؤكدون أنهم دفنوا رأسين كانوا بالقرب من القلعة ولكن ليس أي منهم لسعيد باشا، وهذا ما أقسم على صحته "منعم الأسود" وقد رأى بنفسه ومن قرب سعيد باشا وبالتالي له القدرة على التمييز بين هذين الرأسين ورأس الباشا[٢٤٤].

ولا تنتهِ الإخباريات عند هذا الحد بل يكثف الراوي جهوده لجمع المزيد منها، وهم القاطنون عند الباب الشرقي " والذين يسكنون عند الباب الشرقي سمعوا طلقات نارية في

---

(242) أرض السواد، ج١، ص ٥٧.

(243) المصدر نفسه، ج١، ص ٥٧.

244) المصدر نفسه، ج١، ص٥٨.

(4) المصدر نفسه، ج١، ص٥٩.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ليلتين متواليتين، وقيل أن عددا من الفرسان حاولوا اختراق الطوق ومغادرة المدينة... أكد ذلك أحد الحراس الليليين، وقد توارى في الوقت الذي مر فيه الفرسان، لكنه سمع صيحات تحذير ترددت عدة مرات، وقد ميز بوضوح كلمة بالذات "يا باشا ..يا باشا" ثم عاد الفرسان من حيث أتوا"[٢٤٥].

ثم تتوالى الروايات إلى أن تنتهي في "قهوة الشط"حيث عامة الناس ونساؤهم الذين لا يملّون من تجاذب الأحاديث وافتراض الحيثيات إلى أن يقرر أكثر من واحد: "إن سعيد باشا قتل أو انه مات وشبع موتا، كان من يتكلم يقول ذلك بثقة راسخة "[٢٤٦]، وخلافاً للأماكن الأخرى.

إنَّ ما سبق من تجاذب أطراف الحديث في حادثة يجهل الناس مجرياتها قد ضَمِنَ أكثر من احتمال ليخفف على المؤلف (الراوي) من ثقل المسؤولية في تقرير قصة دون أخرى، فيوظف الراوي غير قصة ليحقق بذلك أكثر من غاية، وقد أفاد المؤلف من هذه الحيثيات فنشرها على ألسنة البغداديين، كما إنَّه يعمل على إثبات قدرة الراوي العليم على التنقل بحرية وخفة بين أهل بغداد لرصد ما يقولونه عن هذا الأمر، وإثبات هذه القدرة يؤكد مرونة الراوي في السماح لغيره بأن يتكلم ويبدي وجهة نظره[٢٤٧]، كذلك يعمل على تأكيد أن هذه الرواية جاءت لإظهار أناس القاع وإبراز آرائهم والتغلغل بينهم وكشف وجهات نظرهم، وهذا ما حاول مؤلف الرواية تأكيده أكثر من مرة وكان من الضروري في "أرض السواد" أن تبرز

---

(١) أرض السواد، ج١، ص٦١.

(٢) نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ص ٢٢١.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

بوضوح الملامح الدقيقة للأماكن والمناخات والبشر، وقد استطاعت الرواية أن تنطلق من الشعبي إلى الحدث العام[٢٤٨].

- التقنية الرابعة :

أن تدار الأحداث بطريقة متصاعدة تجعل المتلقي محتاجا إلى خاتمة تاريخية تحسم الموقف وتكشف النهاية[٢٤٩]، "وفي مثل هذه الحال يبلغ الصدق الفني في تمازجه بالصدق التاريخي مرحلة متقدمة، ففي الرواية[٢٥٠]، كنا ننتظر النتيجة الحتمية للقنصل البريطاني ريتش إذ إن وتيرة الأحداث تتصاعد بين داود باشا في السراي وريتش في الباليوز أو مقر القنصلية البريطانية فتنحبس الأنفاس بتعاظم النفس من التاريخ نهاية مؤكدة تؤكد الانتصار ولو كان مؤقتا، وقد تَمثَّل ذلك باللقاء التاريخي بين ريتش و داود باشا أعلن فيه الأول انسحابه من بغداد، فكانت تلك سابقة نادرة في ذلك العصر المزدحم بالمآسي والهزائم، وكانت النهاية التاريخية ضرورية لتأكيد هذا الانتصار، فدار حوار مطول بين ريتش و داود باشا على آخر قضية تسببت في فصم ما تبقى من عرى التفاهم بين الطرفين، وتقرر أن يغادر ريتش بغداد بناء على طلبه، شرط أن يبعث ريتش برسالة رسمية إلى السراي تؤكد رغبته في ترك بغداد والتوجه جنوبا، ولم يكن له أن يغادر بغداد لو لم يبعث الرسالة[٢٥١]، "وبعد يومين من هذا اللقاء أرسل ريتش إلى السراي الخطاب الذي طلبه الباشا ... أما خلال هذين اليومين فقد انشغل

---

[248] عبد الرحمن منيف، **رحلة ضوء**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٣، ص ١٣٦.

[3] نضال الشمالي، **الرواية والتاريخ**، ص ٢٢١.

[250] سعيد يقطين، **الرواية والتراث السردي**، المركز الثقافي العربي، بيروت،١٩٩٢م. ص٦٧.

[251] نضال الشمالي، **الرواية والتاريخ**، ص ٢٢٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

جميع العاملين في الباليوز بنقل أشياء لا يعرف ما هي إلى السفينة الحربيـــة المرابطـــة، لأن ريتش قرر ركوبها وبمرافقة مركب آخر إلى البصرة"([٢٥٢]).

-التقنية الخامسة:

- تكرار السرد:

وهو في أبسط الحالات عودة السرد تكراراً إلى حدث واحد، يُعرض غير مرة لغاية فـــي نفس السارد، فقد تكون الحاجة أو الرغبة لاستطلاع وجهات النظر لدى شخـــصيات الحـــدث الذي يهم كل واحد فيها برواية الحدث بطريقته الخاصة وبالأسلوب الذي يرتـــضيه، فتكـــرار السرد هو اجترار حادثة في أكثر من خطاب بقصد تخصيصها مع احتمالية وجود تغيير جزئي في فحواها([٢٥٣])، يرافقه تغيير أسلوبي في عرض الرواية([٢٥٤])، فالحدث الواحـــد لـــدى أُنـــاس "منيف" يشبه في توسعه دوائر الماء المتضخمة المتموجة تلقائياً باتجاه اليابـــسة أو التلاشـــي نتيجة مؤثر حدثي ألم بسطحها الوادع، وقد كثُر هذا النمط كثرة لافتة فـــي "أرض الـــسواد"، والحادثة التالية التي ستعرض في أكثر من موضع في الرواية، هي كيف قَتَـــلَ "الآغـــا ســـيد عليوي" "حمادي" مساعد سعيد باشا والي بغداد المخلوع.

الرواية الأولى:

قيل إن سيد عليوي لم يحتمل الكلمات التي قالها حمادي، فقد أخرج مسدسه علـــى الفـــور وأفرغ رصاصاته في رأسه وصدره وهكذا انتهى .

---

(252) أرض السواد، ج٣، ص٣٠٦.

(253) عبد الحميد المحادين، التقنيات السردية في روايات عبد الرحمن منيف، المؤسسة العربيـــة، بيـــروت، ١٩٩٩م، ص٢٤٤.

(254) حميد الحمداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ٢٠٠٠م. ص١٤٥.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الرواية الثانية:

وقيل إنَّ حمادي لم يُقتَل بالرصاص في تلك الليلة، إذ تركه "الآغا عليوي" بضعة أيام ورجع إليه في إحدى الليالي وأخذ يتفنن في تعذيبه.

الرواية الثالثة:

قيل إنَّه استعمل سكيناً صغيرة كان يقلم بها أظافره عادة، اذ أخذ يقطع أجزاءً من جسد حمادي وكان يلعب بالقطع المقصوصة، يرميها في الهواء ويحاول أن يدخلها في فوهات الجسد، ويدوس عليها، وحين بلغ حمادي مرحلة قاربت على النهاية، هوى على رأسه بالبلطة ذاتها فشق الرأس نصفين.

الرواية الرابعة :

وقيل إن سيد عليوي لم يقتله بيده، صحيح أنَّه كان موجوداً أثناء قتله لكنه لم يشارك في القتل.

الرواية الخامسة:

وقيل إن مائدة أُعِدَّت لسيد عليوي في صدر الغرفة وكان يشرب ويتابع التعذيب، ويبدو أنَّه كان متفقاً مع رجاله، فما أن وضع الكأس حتى توالت ضربات قضبان حديدية على رأس حمادي وهكذا انتهى.

فالمشترك بين الروايات هو قتل "الأغا عليوي" لـ " حمادي" مساعد الوالي المخلوع. بطريقة وحشية مبتكرة.إذ تأخذ الفائدة المرجوة أكثر من منحى، فمن جهة تُظهر هذه التواترات السردية مدى انشغال الناس بتتبع مثل هذه الأخبار والزيادة عليها والانسياق نحو الإشاعة و

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

التأليف والترويج، ومن ناحية أخرى؛ تكشف هذه التكرارات نظرة الناس الحقيقية نحو الـولاة والحكام القائمين على النظام في تعاملهم مع قضاياهم، ومن ناحية ثالثة؛ فان تقنية تكرار السرد تتميز بها الرواية التاريخية ــ التي تضيق بصراحة التاريخ ــ فلا تستطيع أن تغير حوادثـه مهما كانت طفيفة [٢٥٥]، فتسعى إلى عرض السرد للحادثة نفسها من مجموعة من أفواه عامـة الناس، "ليتخلّص المؤلف من وثائقية التاريخ، ومن الوقوع في خطأ تدويني قد يُفقـد العمـل مصداقيته التاريخية، وبالتالي فان توظيف مثل هذه التقنية تمنح العمل المصداقية الفنية التـي تخرجه من دائرة الرصد والتسجيل إلى دائرة الفن والتشكيل"[٢٥٦].

- السرد الإفرادي:

وهو أن نروي ما حدث مرة واحدة، أي أن تجد خطابا وحيداً يروي ما جرى مرة واحدة وهذا هو الأمر الشائع في كثير من الخطابات، وهو السرد الذي ألفناه في إقامة أود الأحـداث فـي الروايات، فهذا الشكل من السرد هو الذي يتوافق فيه تفرد المنطوق السردي مع تفرد الحـدث المسرود، ما يعني سردا انفراديا أو مشهدا تفرديا [٢٥٧]، ومنه الحدث الختامي الذي يسرد فيـه الراوي حدث رحيل القنصل الإنجليزي من بغداد إلى الصين، بعد أن مُنِيَ بهزيمة سياسية من والي بغداد داود باشا، ففي "ظهر الخميس غادرت سفينة الباليوز، وقف الكثيرون على ضفتي النهر كي يلقوا نظرة على هؤلاء الذين يغادرون، لم يكن على ظهر السفينة إلا مجموعة مـن الحراس والهنود، أما الآخرون فقد اختفوا داخلها [٢٥٨].

---

(255) نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ص١٨٨.

(256) نفسه، ص١٩٨

(1) نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ص١٨٦.

(2) أرض السواد، ج٣، ص٣٠٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وبهذه التقنيات السردية السابقة في السرد عن المكان والفضاء والشخوص ينتقل السرد إلى أهل بغداد عامة(أهل الكرخ والرصافة) ولأن أهل الكرخ هم البسطاء من الناس الذين يحتلُّون معظم ما ورد في الرواية من أحداث، فقد اهتم السارد برصد ملامح هذه الكتلة النوعية من الناس في بغداد، الذي أخذ نصيبه الوافر من الرواية خاصة في الجزء الثاني منها، وهنا يقل سرد الأحداث الخاصة بالسراي أو الوالي ومن يعملون هناك(صوب الرصافة) لينفتح باب السرد على شخصيات صوب الكرخ وخاصة روّاد (قهوة الشط).

"ومثل عادتهم أهل الكرخ وخاصة روّاد قهوة الشط يتأثرون بسرعة: يحزنون، يرقّون، يتسامحون، يبالغون في الشجاعة و والكرم، وعن ذلك تُروى القصص لكنهم وبنفس السرعة ينقلبون إلى حال من الجلافة والخشونة وينسون ما عاهدوا أنفسهم عليه، حتى لينطق من يرقبون تصرفاتهم ويتابعون أفعالهم أن داخل جِلدَ كل واحد منهم أنفاراً وأرواحاً عديدة، قد تزيد على أيام الأسبوع[٢٥٩].

- اللغة الفصيحة واللهجة المحكية في رواية أرض السواد:

استطاعت الرواية بوصفها جنساً أدبيا أن تحلَّ المفارقة الظاهرة الناجمة عن مزاوجة بعض أنماطها؛ بين الطموح إلى العالمية والحفاظ على امتلاك خصوصية الهوية، فالجنس البشري يعيش قضاياه الوجودية الكبرى بطرائق متشابهة في كل زمان ومكان، والطريقة المثلى للتعرف على شعب من الشعوب هي قراءة أدبه عموماً وروايته خصوصاً، فقد تحقق قدر من اطلاع القارئ العربي على أوضاع أمريكيا اللاتينية من خلال روايات (ماركيز)،

---

[٢٥٩] أرض السواد، ج٣، ص ١٨٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library Yarmouk University

أكثر مما تحقق عن طريق المعلومات التي تقدمها كتب الجغرافيا، أو الأفلام الوثائقية، والتسجيلية التي يمكن أن تتصدى لمثل هذه المهام[٢٦٠].

ولا ينبغي الذهاب إلى أن الرواية العربية التي تناولت شؤونها المحلية، كانت تقصد من ذلك مجرد بلوغ الصفات العالمية، فهناك أسباب أخرى لا بد من الإشارة إليها، وهو السعي إلى طرح الهوية الخاصة وتكريسها بخصوصيتها، وفي إطار هاجس التأصيل واثبات الذات، وقطع الوشائج مع الرواية الغربية التي تم احتذاؤها في البدايات شكلاً ومضموناً، ولكي تكون الرواية العربية رواية عربية خالصة، "فربما يجد الكاتب في منطقته عدداً من الشخصيات التي يتمتع سلوكها ووجودها بقدر من الطرافة تجعله يفكر جديا باستثمارها في عمله الروائي لطرح إشكالية لا يمكن طرحها[٢٦١]. وقد يأتي تفوق اللغة عن غيرها من بقية العناصر الفنية الأخرى من أنَّها أداة لتوصيل الادب وحده، "ولكنها الوعاء الحامل لكل فكر الانسان وعلمه وثقافته[٢٦٢].

ففي "أرض السواد" كانت الإشكالية أكثر تعقيداً، إذ بالإضافة إلى صعوبة اللهجة ذاتها لمن لا يألفها ويمارسها، فان أكثر الأبطال في الرواية هم من "ناس القاع"، ولهؤلاء لهجة وطريقة في التعبير عن تشكلات الشخصية ذاتها، ولتغيير هذه الجوانب هناك ملاحظتان لا بد منهما.

فنظرا للعزلة المديدة التي عاشتها هذه اللهجة ضمن مجال مغلق، اكتسبت بمرور الوقت ملامحَ وظلالاً بالغة القوة، كثيفة الدلالات، وبالتالي صار لها جمالها وقوتها، وأهميتها، وأصبحت أي محاولة للترجمة أو التغيير تفقدها الكثير من هذا الجمال وهذه القوة، والملاحظة

---

(260) انظر: صلاح صالح، سرديات الرواية العربية المعاصرة،المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003م، ص٥٠-٥١.

(١) انظر: عبد الرحمن منيف، رحلة ضوء، ص ١٤٧-١٤٨.

(262) عبد المحسن طه بدر، نجيب محفوظ، الرؤية والأداة، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٨م، ص١١٦.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الثانية هي؛ إنَّ المرحلة التاريخية التي تحوي أحداث الرواية خلالها لا بد أن تؤخذ بعين الاعتبار[٢٦٣].

ومع تقدم الأحداث خاصة في الجزء الثاني من الرواية، يصبح أهل الكرخ هم مدار الحكي، لتظهر لهجة أهل العراق على ألسنة شخوص الرواية في حواراتهم، وقد مثّلت هذه اللهجة قدراً كبيراً من الصعوبة في فهم ما يقال، لكن ذلك القدر سريعاً ما يتبدل مع اعتياد هذه اللهجة التي يستطيع القارئ أن يفك مغاليقها مع تطور السرد، وتوالي الحوارات بين الشخصيات .ومن ذلك النزق الذي تم التعبير عنه كثيراً في حوار الشخصيات من فيضان النهر، وما خلّفه من دمار، إذ يقول "سيفو المحمود":

"الله يمتحن عباده، لكن ما أدري ليش شاد وأهل العراق ... شنوا القصة، ما تفهّموني ...قال ذنون كأنه يكلم نفسه: هذا مو من البارحة واليومن من يوم نوح وطوفانه الأول، وسبحانه واقع بينا دق. ولا بد تكون له ويانا سالفة، على كيفك أبو عمر، رد الأسطة عواد، لأنه سبحانه وتعالى يريد يمتحن أهل العراق، يختبرهم، شقد يتحملون، وبعدما يتأكد يجازيهم ، وقال سيفو بحدة: يا أبو نجم كثر الدق يفك اللحيم، وخاف سبحانه وتعالى راح زايد والناس ما عاد بيها حيل"

وللحوار في أرض السواد خصوصية، إذ عُرض باللهجة المحلية الحقيقية التي أكسبت العمل مصداقية فنية آتت أُكُلَها، ولم تفسد أناقة اللغة الفصيحة التي يتسلح بها الراوي إذ ما نطق، وقد وضَع "منيف " في مطلع الرواية وقبل البدء إشارة قَبلية تشير الى هذه اللهجة وكثافتها وظلالها

---

(263) بشير الرشيد بوشعير، توهج مَلّ الرماد في ثلاثية أرض السواد، دراسة في رواية عبد الرحمن منيف، ص١٤٥.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

"لهجة بغداد مليئة بالكثافة والظلال، وقد استعملتها في الحوار للضرورة، دون محاولة لإظهار براعة لغوية، أتمنى على القارئ أن يبذل جهداً من أجل التمتع بجمال هذه اللهجة"[٢٦٤].

وهذه النية المسبقة في توظيف اللهجة العامية تزيد في أسهم العمل الروائي، فيرقى في مهمته على مهمة الإخبار التي يتسيدها الراوي، والراوي يدخل إلى السرد الحكائي ليقوم بدوره بوصفه عنصراً من عناصر العمل، وقد يرى السارد أن لغته سيطرت أوهدأت فيترك الأمر للحوار الساخن الفاعل بين الشخصيات، فكانت لغة الحوار تقطع ملل الوصف السردي، واللهجة العامية تقطع رتابة الفصيحة، والمجاز يعلو على الجميع، ما جعل لهذه المستويات الثلاثة: العادية، المجازية، العامية إيقاعات نثرية مميزة جعلت للغة منيف مذاقاً خاصاً في هذه الرواية[٢٦٥].

- **الخطاب الروائي في رواية أرض السواد:**

ويعني عرض الملفوظات وأفكار الشخصيات بكلمات السارد[٢٦٦]، وتعدد الصيغ الخطابية هو طابع مشترك في الخطاب الروائي، فكل خطاب يمارسه الراوي يختلف عن الآخر، من التعدد الخطابي إلى التلوين الصيغي مروراً بالتقطيع الصيغي، حيث نجد الراوي أمام تصور مشترك في تقديم مادة الحكي، فليس الهدف الرئيس هو تقديم القصة وأحداثها سواء أكانت مادتها مستقاة من التاريخ أم من الواقع أم من الخيال، ولكن من المهم العناية بالكيفية في اشتغال الصيغ وطرائق تبدلاتها وانتقالاتها، فهي التي تحدد نوعية الصيغة المستعملة والطريقة

---

(264) أرض السواد، ج١، صفحة ما بعد الإهداء.

(265) انظر: مدحت الجيار، قناع السرد في أرض السواد، مجلة فصول، عدد٦٥، ٢٠٠٤، ص٢٤٨ـ٢٥٠.

(266) جيرالد برنس، المصطلح السردي، ترجمة: عابد خزندار، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م، ص ١٥٦.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الموظفة في الإرسال.[٢٦٧]، فقد عودتنا الرواية التقليدية على هيمنة الصيغة السردية من خلال تحرك السرد من مكان إلى آخر، ومن شخصية إلى أخرى، وتقديم الأحداث والأقوال دائما من خلال السرد و إحدى تفريعاته -التي ستأتي لاحقا - ومن خلال هيمنة صيغة السرد في الخطاب الروائي التقليدي يصبح لزاما على القارئ أو الباحث أن يتحدث عن السرد ممزوجا دائما بالوصف، إنه رديفه أو توأمه الذي لا يفارقه[٢٦٨]. وتتمثل هذه الصيغ الخطابية في:

- الخطاب التقريري:

وهو خطاب ينقله الراوي كحدث من أحداث الرواية، وفي هذا النوع من أقوال الحكي لا يفرّق بين كلام أو إشارة أو حركة أو موقف، وهذا الخطاب من أكثر أنواع الصيغ بعدًا عن الأصل، وهو مصاب بعدوى الاختصار أو الاختزال لأن الراوي هو المتحكم به، فيحوله من قول محكي أو إشارة، إلى مادة ملخصة يمتلكها السارد لغايات التسريع أو التجاوز أو الاهتمام بالفحوى دون اللفظ[٢٦٩].

"عزرا الذي فهم الرسالة جيدا، أبلغ ريتش أنه لا يستطيع أن يقف في وجه الباشا، وأن التجار يمكن أن يضغطوا، لكنهم لا يستطيعون أن يحاربوا، لذلك سيتذرعون بعدم وصول البضائع لرفع الأسعار، وهذا أقصى ما يستطيعونه الآن، وعلى بريطانيا أن تتدبر الأمر وأن تستعين بقوى أخرى، فإذا وصلت الجيوش لحصار بغداد فيمكن عندئذ أن يثور الناس، ويؤازرهم التجار، كما حصل لسعيد وينتهي كل شيء"[٢٧٠].

---

(267) سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص ٢٧٩.

(١) انظر: نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ص ١٩١-١٩٢.

(٢). سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص ٢٧٩

(270) أرض السواد، ج٣ ص٢٤٥.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

في هذا المثال على الخطاب التقريري يختصر الراوي حوارا مطولا بين متحاورين طال النقاش بينهما، وعلى ما يبدو فإن هذا الاختزال لم يكن غايته الوحيدة انجاز هذا المشهد الحواري المسرود بل إن طبيعة الموقف تتطلب ذلك، فالراوي يقف لرصد مؤامرة خفية حيكت في بغداد تستهدف واليها "داود باشا".

-الخطاب المباشر:

وهو الصيغة الثانية من صيغ الخطاب، ويعرف بأنه خطاب منقول حرفيا بصيغة المتكلم، ويأتي غالبا بعد فعل القول أو ما في معناه، ويكون مسبوقا بنقطتين وموضوعا بين علامتي تنصيص، وذلك لإثبات نسبة القول إلى قائله بعيدا عن تدخل الراوي في الاختصار والإجمال أو الحذف أو الاختيار، ومنه المثال التالي:

"أما حين أخذت تتوارد إلى السراي أخبار امتناع بعض القبائل عن أداء ما يترتب عليها من ضرائب رسوم فقد قال داود باشا للآغا، وكانا يجلسان في الشرفة الجنوبية المطلة على النهر:

لازم نخلي البدو يخافون خوفة حية ...بس تتذكر الحكومة

ولما هزّ الآغا رأسه موافقا تابع داود:

-وهذا ما يصير إلا بعد ما يجيبهم أول صوب ...والثاني.

حتى يقولوا : إن الله حق وإنه الحكومة تقدر على كل شيء"[٢٧١].

والمشهد السابق ينقل صيغاً من الخطاب المباشر لم تحصر بعلامات تنصيص، ولكن الكيفية التي عرفتها والخطوط في كل صيغة مباشرة كشفا لنا عن قول صريح بالشخصية المتحدثة،

---

[271] أرض السواد، ج١، ص ٣١١.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

معروض بلغتها الخاصة، ولهجتها المحلية، ونلحظ تدخل الراوي التوضيحي، ولكن خارج سياق الصيغة، مثال: تدخله في عرض المكان الذي كانت فيه الشخصيتان تتحاوران الشرفة الجنوبية المطلة على النهر"[٢٧٢].

فالخطاب المباشر خطاب يفترض تبدلاً في التكلم؛ لأنَّ الراوي يترك مكانه للشخصية لتعبر بصوتها ولهجتها وألفاظها، ما يعطي النص حيوية وقوة تعبير، وحين تتولى الشخصية الكلام بنفسها تصبح ضمائر التكلم وعلامات المكان والزمان في كلامها تابعة لعالمها، كما أن ثقافة الشخصية تتجلى واضحة من خلال حديثها، لأن نمط الخطاب المباشر نمط مسرحي، والنمط المسرحي هو أكثر الأنماط صلة بالمتلقي بعيدا عن أي حاجز مهما كان شفيفاً[٢٧٣].

-الخطاب التلخيصي:

هو خطاب منقول بصيغة الغائب، يأتي بعد فعل القول أو ما هو في معناه، ولا يكون مسبوقا بعلامتي تنصيص، وقد سُمي هذا النمط من الصيغ بذلك لأنه خطاب عن غائب، تُراعى فيه الدقة في نقل الكلام، بل قد يُنقل بالمعنى مع إشعار بأن هذا قول لفلان[٢٧٤] ومثاله:

ولئلا تصل المفاوضات مع "درويش آغا "إلى ما يشبه هذه النتيجة، أُرسل إليه "مشهور أبو الهيل..." وقد أبلغه أثناء الحديث إذا كان يوافق، إن بالإمكان أن يفتدي حياته وحريته بمبلغ من المال، وزُين هذا الحل رغم صعوبة أن يوافق عليه، لكي يبذل أقصى ما يستطيع من أجل

---

(272) نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ص ١٩٤.

(273) بشير الرشيد بوشعير، توهج ملّ الرماد في ثلاثية أرض السواد، ص ٩٤.

(274) نضال الشمالي، الرواية والتاريخ ، ص٩٤ـ٩٧.

(3) ماهر جرّار ، عبد الرحمن منيف والعراق، ص ١٤٩.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ذلك"ودرويش آغا "الذي لم يرفض هذا الاقتراح تساءل عن الوقت الذي يمكن أن يقضيه في هذا المطاف، الذي ما إن تخيم الظلمة حتى يمتلئ بالعفاريت تتراكض حوله"[٢٧٥].

فالمثال السابق يدل على أن الخطاب غير مباشر، ويؤكد ذلك استخدام الأفعال الدالة عليه مثل؛ (أبلغه)،(تسأل)، فما ورد بعد هذين الفعلين شكّل قولًا مفترضًا، يفترض أن الشخصيات المتحاورة قد أفضت به، وقد قدمه الراوي بالمعنى وليس باللفظ ومما يؤكد ذلك أن الراوي قدم حديثهم بالفصيحة التي يعتمدها في سرده، ولم يذكره باللهجة المحلية المعتمدة في الرواية للحوار بين الشخصيات [٢٧٦]، ويلجأ الكاتب إلى هذه الصيغة غير المباشرة لأنّها تميل إلى التلخيص أكثر من التفصيل، لذا نلمس غياب ذكر الانفعالات المصاحبة للقول أو لما هو في معناه.

- المثل الشعبي في الرواية:

يستعمل المثل في روايات "عبد الرحمن منيف- أحيانا- ليصف الحالة الاجتماعية المتردية وينتقدها، والهدف من ذلك إصلاحي، وإن اكتفى بالإشارة إلى الخلل، دون تفسير أو توضيح بشكل دقيق، وقد حرص منيف في هذه الرواية على توظيف الأمثال الشعبية توظيفاً ذكيا، إذ جعلها تؤدي وظيفة مزدوجة، فهي في مجملها تعد وعاءً للتجارب الشعبية في الحياة وفي رؤية العالم ،فضلاً عن كونها تعكس السيكولوجية الشعبية بميولها المتميزة وعادتها وتقاليدها، وثقافتها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الأمثال تعبّر عن الشخصية الروائية وطريقة تصرفها وتفكيرها، وتقييمها للمواقف وللآخرين، ولذلك يسهم المثل إسهاما فعّالاً في بناء الشخصية .

---

[٢] إبراهيم صالح، أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمن منيف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٤م ، ص ٢٣٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وهو بشكل عام لغة العامة، إنه أدب ناس لناس، يعبر عن واقع إنساني، وهو ثقافة متوارثة متجددة في آن واحد[٢٧٧].

كما يعبِّر المثل عند شخصيات "منيف" أحياناً عن رفضها للواقع السياسي والاجتماعي، وباستخدام المثل فإنهم يعمقون في دلالات أمثالهم الشعبية فيجعلونها أشبه بلغة سرية، تجنبُ عنهم مخاطر التعبير المباشر، الذي قد ينتقد السلطة، ويحاولون المواءمة بين معنى المثل والحالة الراهنة للتعبير عن موقف سياسي -غالبا- وأحياناً عن موقف اجتماعي.

وقد نطق المثل في روايات منيف وخاصة في أرض السواد، بوجع الناس وحمل رفضهم وكذلك أمنياتهم، معبراً عن أزمة مزدوجة، أشار بداية الى الواقع السياسي الصعب والاجتماعي السيئ ثم إلى أزمة الإبداع[٢٧٨].

ومن الأمثال المعبرة عن االواقع السياسي، يقول أحد رجال "أرض السواد "عن استقواء البريطانيين بعدما هُزم الفرنسيون بقولها:" غاب البزون العب يا فار"[٢٧٩].

والمثل يحمل دلالة ضمنية، وهي تمني عودة البزون الفرنسي، ليس حباً به وإنما كرها بالفار البريطاني، وقد ورد المثل هذا على ألسنة بعض المسافرين الذين عادوا من البصرة إلى بغداد، وأخذوا يصفون نفوذ الانجليز، وكيف أنهم استغلوا هزيمة الإمبراطور"نابليون " الذي كان يستطيع أن يقف في وجوههم.

كما يردد "داود باشا " نفسه مثلا" : مثل "اللي يُؤمِّن البزون شحمة"[٢٨٠].

---

(277) بشير الرشيد بوشعير، توهج مَلّ الرماد في ثلاثية أرض السواد، دراسة في رواية عبد الرحمن منيف، ص١٥٥.

(278) إبراهيم صالح، أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمن منيف، ٣٣٥.

(279) أرض السواد، ج١، ص٢٤٨ .

(280) نفسه، ج١، ص١٢١.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

في إشارة إلى مرض قائد جيشه "سيد عليوي" حيث فكر بعض جنود الباشا في الاستعانة بطبيب القنصلية البريطانية، إذ يرى "داود باشا " ـــ بحسب هذا المثل ـ أن قائده كـ"شحمة "تُرمى للقِط الإنجليزي، ويُطلب منه ألَّا يأكلها، بل يحرسها[٢٨١].

أمَّا الأمثال المعبرة عن الواقع الاجتماعي:

فقد استُعمل المثل القائل "الدم ما يصير ماي"[٢٨٢] في "قهوة الشط " ليعبر عن تكاثف أهل بغداد في مواجهة المصائب والمحن والمشاكل السياسية الداخلية، والخارجية مع البريطانيين. كما رَدَّ أحد رجال "قهوة الشط " بالمثل على مترجم القنصلية البريطانية عندما وصف قهوة الشط بـ (كوره زنابير) حيث أجابه أحد رجالها بمثل مُحكَم الدلالة "الزنابير ما تخرى عسل"[٢٨٣].

وقد أكثر منيف من استخدام الأمثال على ألسنة الشخصيات للتعبير عن موقفهم من السلطة السياسية ومن السياسات الدولية وذلك لسببين:

الأول: إنَّ المثل يؤمن لهم مساحة (أمان) من حيث طبيعته الرمزية، فلا يعرِّضهم للمجازفة في التعبير المباشر.

الثاني: إنَّه يشكل لغة يفهمها الجميع على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية والثقافية، لذلك عبروا عن موقفهم الاجتماعي والسياسي السيئ والمرفوض تماماً، وحمّلوا أمثالهم غالباً شحنات من المرارة والتذمر والتهكم.

كما ينتقد "سيفو المحمود" رجال الدين ويتهمهم بالكذب والتمثيل، ويعبر عن موقفه بمثل معروف ليس في بيئة العراق فحسب وإنما في معظم البيئات العربية، والمثل الذي يستخدمه

---

(281) إبراهيم صالح، أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمن منيف، ص٣٣٣.

(282) أرض السواد، ج١، ص٦٣.

(283) نفسه، ج١، ص٣٣٥.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

سيفو هو (مو كل ما يبرق ذهب)، ثم يفسر قوله بتعبير شعبي متداول بين الناس "لا تغـركم البسملة والحوقلة"[٢٨٤].

ومن الأمثال الموظفة في الرواية، ما تردد على لسان سيد عليوي الدموي" "الكلب اللّي ينبح ما يعض"،[٢٨٥] وهو يريد بذلك معاكسة المثل في حفظ السر وكتمانه، إذ إنه لم يكن أحد مطلعاً على ما أضمره "سيد عليوي " بمن فيهم "داود باشا" وحتى أن رجاله الأربعة الذين رافقوه في جنح الظلام لم يكونوا يعرفون أي شيء عن المهمة التي تنتظرهم في القلعة، ولذلك فإن هـذا المثل يصف طبيعة سيد عليوي الكتوم، فضلاً عن دلالته على ما توارثته الناس من تجـارب تاريخية متغلغلة في التاريخ تؤكد أهمية الكتمان، وحفظ الأسرار.

ومن الأمثال التي تعبِّرعن الواقع الاجتماعي الذي لا يخلو من النفاق المثـل القائـل: "الشاطر يلطم ويّا صاحب البيت ويقسّم ويّا الحرامي"[٢٨٦]، حيث يرد هذا المثل في الرواية في سياق الحوار الذي يدور بين مرتادي "قهوة الشط" الذين يمثلون السواد الأعظم مـن الـشعب، وهو يعبر عن تدهور القيم في المجتمع وانقلاب المعايير في فترة حكـم المماليـك للعـراق. ويردد "الأسطة عواد صاحب مقهى الشط" الذي حركته التجارب فيقول: "ما تجي المصايب إلا من الحبايب"[٢٨٧]. وهذا المثل يناظر المثل العربي المشهور "الأقارب عقارب"، وهو يعبر في الرواية عن التوجس والريبة التي انتشرت في المجتمع ، وأصبحت طبعاً من الطباع في ذلـك العصر الذي تدور فيه أحداث الرواية. ويقول الأسطة عواد نفسه أيضا في معرض حديثه عن

---

(284) نفسه، ج٢، ص ١٥٩.

(285) أرض السواد ج١، ص٣٩.

(286) نفسه، ج١، ص٥١٨.

(287) نفسه ، ص١٢٦.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المحنة التي يعانيها شعب العراق آنذاك من فيضان النهر والمصاعب التي يلاقونها جرّاء ذلك: "المصيبة اللي ما تكسر تقوّي"[٢٨٨].

ويستخدم "السيد عليوي " مثلاً آخرا عندما قام بالمهمة "قتل سعيد باشا " وكان يريد الخلاص أيضاً من صديق "سعيد باشا" المقرب(حمادي) فيقول: "اللي تأكله العنز يطلعه الدباغ"، في إشارة إلى أن مآل هذا الأخير الى الدباغ (عليوي) في تحدي المنتظر الذي يفرضه عليوي في ذلك الوقت على "سعيد باشا".

هذه بعض الأمثال الموظفة في الرواية حيث أحسن منيف توظيفها، بالتعبير عن المواقف السياسية والاجتماعية، وربما النفسية ايضاً، في تلخيص عدة أفكار تراود الشخصية يختصرها بمقولة تكون خير تعبير عمّا يدور في خلد تلك الشخصيات، فكانت بمثابة رسالة قوية يقابلها استقبال قوي في الفهم وعمق الدلالة.

- **الحكاية في رواية أرض السواد:**

هي مجموعة من الوقائع والمواقف المسرودة حسب ترتيبها أو مساقها الزمني[٢٨٩]، فبعد التمهيد بعنوان "حديث بعض ما جرى" وهو الفصل الوحيد المعنون، يأخذنا الراوي إلى الفصل الأول وإلى فضاءات الحكاية التي تتوالد في ألف وثلاثمائة وتسع وتسعين صفحة وفي مائة وستة وثلاثين فصلاً.

فالحكاية الأم التي بُني عليها المتن الحكائي، هي حكاية "داود باشا" وصعوده إلى السلطة ومشروعه وصراعه مع القنصلية البريطانية الممثلة بـ "ريتش" التي كانت تعرف باللهجة

---

(288) نفسه، ج١، ص٢٢٨.

(289) جيرالد برنس، المصطلح السردي، ص ٨٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

العراقية المحلية (بالباليوز)*، فحكاية داود باشا كتبها المؤرخون، وهم الـرواة الأول الـذين جمعوا خيوط الرواية الأولى وصاغوها والتاريخ صنعة ومحاكاة، ومادة المؤرخين في الحياة، إنهم يؤرخون للحياة وللزمن، فحكاية "داود باشا "حكاية حقيقية وفعلية(٢٩٠).

- الحكاية الأولى:

حكاية داود باشا، صعوده إلى السلطة وصراعه مع "السيد عليوي آغـا قائـد الانكـشارية"، ومؤامرات السراي، وصراعه مع القنصل البريطاني "ريـتش" بمـا يمثلـه مـن عجرفـة إمبراطورية منتصرة، وحروبه ضد القبائل وأموال المتوجه عليه للباب العالي، ووقوعه بـين فكي كماشة؛ قوتين إقليميتين تسعيان للسيطرة على طرق التجارة المحلية، وهي كذلك حكايـة مشروعه الكبير وطفولته وحنينه للبلد البعيد "تبليس" وأحلامه ورقة عاطفتـه اتجـاه طفلتـه وعائلته، ومع حكايات "داود باشا "تتبدى حكايات السراي وموظفيه وخفاياه(٢٩١).

الحكاية الثانية:

حكاية الباليوز و ريتش، وهي كذلك تسير وفق الإيقاعات الدولية والإقليمية والمحلية "نابليون بونابرت" ينهزم وينهار، فخفّت حركة القنصلية الفرنسية في بغداد واختفى اسم قنصلها، ومـع صعود مجد الامبريالية البريطانية"القوة العظمى "كما كان ريتش يسميها كان يعمد "ريتش " الذي ما كاد يتجاوز الثانية والعشرين صاحب الدُربة والحنْكة والعالم بلغات الشرق إلى تدعيم "الباليوز" وجعله قبلة للأنظار"(٢٩٢) : أنظار السراي، وأنظار التجار، والقناصـل الأجانـب، وأنظار جمهور بغداد، وينشئ حرسا خاصا بلباس رسمي، وخيل مطهَّمة، وفرقة للموسـيقى،

---

* الباليوز: الدرابزين.

(290) ماهر جرّار، عبد الرحمن منيف والعراق، ص١٤٣.

(291) نفسه، ص١٤٧-١٤٨.

(292) نفسه، ص١٤٨-١٤٩.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وطقوس تعكس العظمة، كما ينشئ حديقة للحيوانات المجلوبة من المستعمرات، ويستعرضها أمام الناس .

"منذ الغد يجب أن نعطي فرصة للحيوانات التي طال حبسها في الأقفاص علينا أن ندهش أهل بغداد وأن نقول للوالي عن بعض ما نملك وما لدينا من عجائب، ورغم أن الطواويس الأربعة الموجودة في "الباليوز" تتردد أصواتها وتُسمَعُ في منطقة واسعة من المدينة طوال النهار، فإن تلك الأصوات الحادة، والتي لا تخلو من نشازات أثارت كثيراً من الاهتمام، وكان يشفع لها جمال ريشها، وتلك الخيلاء في المشي حين تبدأ استعراضها في الحديقة الغربية الأمر الذي كان يدفع الكثيرين إلى الاقتراب لرؤيتها والتعبير عن إعجابهم الشديد... أما خيول الباليوز المتنوعة وكيف ينظر إليها كل من يراها بإعجاب فإنَّه يصل حدود الافتتان، وبلغ الأمر بعدد من الأغنياء والشيوخ أن تجرؤوا بالسؤال إذا ما كان الباليوز يوافق على بيع بعض هذه الخيول... و ريتش الذي بدأ هاوياً في حب الكلاب والخيول، أصبح يدرك أهمية ما يملك من حيوانات... حيث كان مصمماً على إدهاش أهل بغداد قال بصوتٍ عالٍ : سوف يدرك هؤلاء الناس ماذا يعني الباليوز ومن هو ريتش[٢٩٣].

كما يحاول ريتش أن يتدخل في الأمور السياسية والعسكرية المحلية، مغدقاً المال على معاونيه، ولم يغفل ــ وهو الذي يكره الشرقيين ويحتقرهم، ويرى أنهم لا يملكون حساً بالزمن ــ متابعة شغفه بكنوز الشرق: آثاره ومخطوطاته، لا عن هواية فحسب بل لخدمة بلده وتسلية زوجته الصغيرة "ماري" التي كادت أن تصاب بسوداوية مستحكمة في هذا الشرق الذي تخشى على جنينها من عقله "عقل الشرق" فهي تريد أن يولد في انجلترا كي يكون طبيعياً بين زملائه، لقد أُولعت "ماري" بالثور المجنح، وبغيره من الآثار، وهي ترى أن تنقل هذه الآثار

---

(293) انظر: أرض السواد، ج١، ص٢٦٢، وما بعدها.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

إلى بريطانيا حتى لا تبقى في المكان الموحش بين شعبٍ متخلف، وقد قام "ريتش" بعدة رحلات في بلاد ما بين النهرين صعوداً إلى السليمانية، وكركوك، حيث أقام صلات مع "الأسرة البابانية"، وفي مناطق الأكراد وصولاً إلى(كرمنشاه) [٢٩٤]، إذ عمد إلى الحرب الاقتصادية عبر الحصار الاقتصادي المباشر على بغداد بعد تصفية "سيد عليوي" قائد الانكشارية من قبل السراي وبعدما تبين له مدى استقلالية "داود باشا" ولمس إصلاحاته، خاصة بعد أن رفض الأخير شروط بريطانيا لتنفيذ مشروع الملاحة النهرية الذي يؤمن طريقاً أقصر وأكثر أمناً لحركة التجارة الآتية من الهند.

- **الحكاية الثالثة :**

حكاية آغا الانكشارية السيد عليوي، صاحب شخصية قوية، شهواني نهم إلى اللحم بنوعيه: الحي والميت، باطش، مزهو بانتصاراته العسكرية ضد العشائر، ينظر إلى نفسه بالمرآة، ويحلم بالسلطة والقوة ويتنكب في سبيلهما كل المسالك والمشاق، والآغا لا يخاف فهو الذي دبّر ببديهته السريعة و خياله الدموي، مقتل سعيد باشا ابن سليمان باشا الكبير ونفذه بيديه، وقد قادته شهوته إلى السلطة للتآمر مع الباليوز ومع كرمنشاة، ونفذ خطته عن طريق البطش والتحكم، بالعساكر الانكشارية واستمالة الضباط الشباب، ولهذا السبب ولإشباع نهمه وشهوته، فرض حمايته على "قوّادة" الآرستقراطية "روجينا " وبناتها، حيث كانت تجمع بينهما علاقات عاطفية وغرامية شديدة،[٢٩٥] " لم تكن تجرؤ أن تطلب منه الانتقال إلى غرفة داخلية، رغم أن رغبة جامحة راودتها، وربما تبديل الثوب أحد التعبيرات عن ذلك، إذ كان يكشف جسدها أكثر مما يستره، خاصة بعد أن أحست أن الآغا ينظر إليها بشهوة وبطريقة مختلفة، وكأنه

---

[294] أرض السواد، ج١، ص ١٤٩-١٥٠.

[295] نفسه، ص١٥٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يحاول إعادة إكتشافها، إذ سمح لنفسه أن يمسحها من بطة الساقين حتى الشعر الـذي تركتـه مسترسلا هفهافا، وكأنه إعلان أخير عما تمتلكه من كنوز جسدية، أمّا حين توقف عند الصدر ثم عند الزندين، فقد تركته يتمعن ويتوقف" (٢٩٦).

بعد علم داود باشا بطموحات الآغا ومؤامراته، أبعده بلطف وتكريم إلى كركوك وأحكـم الطوق عليه ثم استدعاه إلى بغداد فأجهز عليه، "وهو يحاول الوقوف أمام البنادق لم يتمالـك نفسه، بكى، صرخ، ترجى، بال على نفسه ثم تهاوى، أوقفه محيـي الـدين لكـي لا تـذهب الطلقات في الهواء، أوقف، بعد أن ربطه، وقبل أن ترتفع الشمس ذراعين أو ثلاثة أذرع فـي السماء، كانت الرصاصات تخترق جسده وتستقر اثنتان منهما في الجمجمة"(٢٩٧).

-الحكاية الرابعة :

حكاية بدري وهو شاب في حدود الأربعين من العمر من أهل محلة الشيخ صـندل، فـي صوب الكرخ، حيث كان مرافق داود باشا العسكري وكان عينه وأذنه في المهمات الخاصـة، وهو الذي حمل نيشانا وكسوة من الباشا هدية لآغا الانكشارية، أثناء حملة الأخير ضد بـدو الجنوب، بدري ابن الحارة وفتاها، وأصغر أولاد الحاج صالح العلو ــ تاجر متوسط الحال ــ وزوجته الطيبة أم قدوري.

"بدري أصغر أولاد الحاج صالح العلو، دخل إلى المدرسة العسكرية خلافا لرأي العائلـة، وأبوه الذي بذل جهدا كبيرا لإقناعه بالتخلي عن سلك الجندية، فلجأ الأخير إلى أسلوب الإغراء والترغيب، ولم ينجح أيضا، فعمد إلى الصمت كأسلوب للعقاب، وإلى الاستعانة بأمه، علّها من

---

(296) أرض السواد ج٢، ج١، ص٢١٧.

(297) نفسه، ص٥٣٩.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

خلال الحنان والدموع تحمله على التراجع، لكن كل هذه الأساليب جُرِّبت واستُنفذت دون تغيير قناعة بدري إلى أن أصبح ضابطاً في السراي وأخيراً مرافقاً للباشا"[٢٩٨].

يقع بدري في غرام راقصة من بنات الهوى من بنات المعلمة روجينا يهيم بها هيام مراهق بريء، " ليلة القلعة غيَّرت بدري صالح العلو ...كانت نجمة تتخايل له في النوم واليقظة، وكانت تتجسد له كلما يسمع صوت امرأة، ما إن تهف رائحة أنثى، إذا ما لمح واحدة أيّا كانت، فإنَّها لا تقارن بجمال نجمة، بعذوبتها وخفة حركاتها: أجفان ذابلة تشبه خيمة رطبة ودافئة، ساقاها كأنهما أعمدة مرمر مضيئة، زنداها مراوح تحمل رائحة الجبال، والبطن، آه، لشدّ ما كان مشدودا ولينا معا أمَّا العَرَق فكان ينزلق من الجبين... فكان مهرجاناً من المسك"[٢٩٩].

وقد كلفه هيامه بها نقله إلى كركوك حيث يقع ضحية المؤامرات والآغا المبعد إلى هناك، بدري سيشهد عند نهوضه لاستقبال عروسه "زكية "القادمة في الطريق القريب إليه والتي زُفت إليه أثناء زيارته الأخيرة لمحلة الشيخ صندل. "وفي وقت ما وكما يفلت عصفور من أسد، كما تهوي صخرة من جبلٍ عالٍ، رأت القافلة الصاعدة واحدا يندفع نحوها رافعا يديه بحركة غاضبة وحزينة، وقبل أن يصل وهو يقترب كان يردد كلمة واحدة :قتلوه...قتلوه ...قتلوه... لا يمكن لكلمات، كل الكلمات، لا يمكن للغة، أي لغة أن تحكي هذا الذي وقع في كركوك بين العصر والغروب في ذاك الخريف الحزين"[٣٠٠]. فكان مصيره القتل بأمر من السيد عليوي.

---

(298) أرض السواد ج١، ج١، ص٥٢٠.

(299) نفسه، ، ص٤٠٣.

(300) نفسه، ج٢، ص٢٨٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الحكاية الخامسة :

حكاية سيفو "السقّاء" ساقي العطاش الكادح المحب للحياة كحبه لأهل المحلة، سيفو الساخر النحيف نحافة توحي بالقوة ومتانة الأعصاب، إضافة إلى امتداد القامة، مع انحناءة صغيرة، ربما بتأثير من قِرَب الماء التي كان يحملها من الشط إلى البيوت أو إلى بعض الدكاكين؛ سيفو المحمود هو أحد أركان صوب الكرخ، وأبرز معالمه يعرفه الجميع ويعرف الجميع أنَّه أشبه بطير من طيور الماء، سيفو الذي يدخن الغليون لا يستغني عنه أهل محلة الشيخ صندل فهو قديم قِدَم القوافل، تُؤرَّخُ به الأحداث، ولا يذكر سيفو إلا ومعه زوجته الثالثة "فطيم أم الغزل" وفطيم وسيفو قصة حب عميق، على طريقتهما الخاصة، وقصة تضحية صامتة وانسجام مع النفس ومع الناس ومع النهر والطبيعة القاسية، ولسيفو نظرته الدافئة الطبيعية إلى الناس والأشياء ولهذا نجده ينفر من الملا "الملا حمادي" إمام جامع الشيخ صندل، من مشايخ المحلات، أي أنه ممثل متواضع للمؤسسة في حي شعبي فلا يكون حدث إلَّا ويكون سيفو في قلبه وفي مقدمة جموع أهل الأحياء الشعبية.

يمكن لـ "حي الشيخ صندل" أنَّ يستغني عن أشياء كثيرة، ويمكن أن يتغير قليلاً أو كثيراً، لكنَّه لا يستطيع أنَّ يستغي عن سيفو، ولا يستطيع أن يحتمل تغيير أو غياب سيفو عن الحي يوماً واحداً ...وأبناء الحي ذاته يؤرخون الأحداث ويحددون المواعيد والوفيات بأمور ترتبط بسيفو، ولد فلان يوم غرق جمل سيفو بالطوفة الكبيرة، مات فلان سنة عظت الحية رجل سيفو وانقطع الماء عن المحلة ثلاثة أيام ...يعرفه أهل الحي جميعا، صغار و كبار ويعرفه سكان المحلات المجاورة، وحتى البعيدة، ويحسدون محلة الشيخ صندل لأن سيفو يخص هذه المحلة بالذات، ولأنهم لم يجدوا سقّاء بنشاطه وحميته[٣٠١].

---

(301) أرض السواد، ج١، ص٤١٥.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

من الصعب تحديد عمر سيفو حتى ولو تقديراً كما أنه لا يحب أن يتحدث عن ذلك، " الشكل : رغم النحافة الظاهرة توحي بالقوة ومتانة العصب، إضافة إلى امتداد القامة مع انحناءة صغيرة ربما بتأثير قرَب الماء الكثيرة التي يحملها من الشط إلى البيوت أوالى بعض الدكاكين في صدر المحلة .نوعية العمل .ثم طبيعة الحياة التي يعيشها سيفو تجعل الإنسان يكبر أكثر من الآخرين وقبلهم، لكنّ هذا الكبر يتراجع، وقد يتلاشى إذا وقعت بعض المعارك أو حصلت الرهانات لتحديد من يدفع ثقلاً أكبر من غيره، قد يضيف بعض المعجبين، كنوع من الدعاية المشوبة بالحسد، وغالباً ما يقولون ذلك همساً: الماء البارد مثلما يحيي ويميت، أحيا فيه القوة وأمات الخلف[٣٠٢].

ليس ذلك فقط فالجميع يعرفون أن فطيم أُم الغزل هي زوجته الثالثة، وقد أنجبت قبل أن تتزوجه بنتاً وولداً، الولد غرق في الشط، وكان ابن عشر سنين، أمَّا البنت فقد كبُرت وتزوجت، وسافرت إلى البصرة، وقد قبلت فطيم أن تتزوجه لأنها تريد رجلاً يحميها وتريد أن تعيش مع سيفو كما تعيش القطة مع أهل البيت.

ـ الحكاية السادسة:

حكاية النهر، وتاريخه الذي يعود لبدء الخليقة، وتستمر معه حكايات الفيضان : عنفوانه، وجنونه، ليحقق قصصاً للمقاومة ثم يمحوها ليعاد خلقها، إنه الموت المحقق كما هو نهر الحياة في جدلية التاريخ[303]، إنَّها حكايات الفيضان والناس المهمشين الذين لم تتسع كتب التأريخ لأصواتهم.

---

[302] أرض السواد، ج١، ص٤١٦.

[303] عبد الله إبراهيم، السردية العربية: بحث في البنية السردية والموروث الحكائي العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠م، ص١٨٩.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library Yarmouk University

"صحيح أن الفيضان يتعاقب سنة بعد أُخرى، كما تتعاقب الفصول ويتحسب له الجميع، إلا إن أملاً يظل يخامر الكثيرين ويتحول الأمل إلى صلاة وتضرع، أن يكون فيضان هذه السنة رحيماً، بحيث يصل إلى حد معين ثم يتراجع،دون أن يجتاح ويدمركما يفعل في بعض السنين"(٣٠٤).

ـ الحكاية السابعة:

حكاية أهل صوب الكرخ وقهوة الشط، بناسه وبيوته، ومقاهيه المتعددة، وحكايات "زينب كوشان" و"حسّون أحمق الصوب"، و"الأسطة اسماعيل الحلاق ، و"الاسطة عوّاد صاحب قهوة الشط" والمختار، وغيرهم .

"إذا كان صوب الرصافة يفخر باتساعه وجمال أكثر أحيائه، وبوجود السراي والوالي وبذاك الكم الكبير من أصحاب المقامات والأولياء وبالسوق التجاري الكبير، فإن صوب الكرخ لا يشعر بالفضاضة أو النقص كما لا يشعر بالخوف ... ولا شك أن الناس في صوب الكرخ أقل غنى لكنهم أكثر اعتزازاً بانتمائهم لهذه الجهة من المدينة والأحياء التي قد تبدو ضيقة ويظهر عليها القِدم، وتوحي بالفقر أيضا، إلا أن البشر الذين يمتلكون قلوباً من ذهب، كما يقول الذين يحبونهم، ويتصفون بالكثير من الطيبة والبساطة ويتميزون أيضا بالصخب والأصوات العالية والمرح...أما علاقتهم مع الغرباء فإنها أقرب إلى الدفء والمودة، لكنهم يتصفون بالحذر حتى إذا وثقوا وتأكدوا أصبح هؤلاء الغرباء جزءاً من المكان ومن ناسه"(٣٠٥).

أما المكان الأكثر شهرة وحضورا في الرواية وأكثر الأماكن لتجمع الناس فكان لقهوة الشط هذه القهوة "قهوة الشط ليست كأية قهوة أُخرى في بغداد :كبيرة، متدرجة، وبالغة البساطة

---

(304) أرض السواد، ج١، ص٦٤.

(305) نفسه، ج١، ص ٢٨٨-٢٨٩.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

والكثافة معاً فإن ما يميزها من غيرها، ذلك الاتساع، مع أنها دائمة التغيير من حيث المزاج، تماماً كماء النهر، على أن فيها أركاناً وزوايا لاستقبال روادها بعد العصر وأول المساء" (٣٠٦).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

(306) أرض السواد، ج١، ص٢٨٧.

الخاتمة

اعتمدت الرواية على راوٍ عليم، كان حاضراً في كل تفاصيل الرواية التاريخية والتفاصيل الفنية، فقد كان هذا الراوي العليم كُلِّيّ الحضور كُلِّيّ المعرفة، فكان السارد (الراوي) حاضراً أيضاً في صناعة الأحداث التاريخية المتخيلة وصناعة شخوصها، فقد كانت لديه القدرة المميزة على مزج الشخصيات التاريخية الحقيقية وأحداثها مع الشخوص الروائية المتخيلة وأحداثها في هذا العمل الروائي الضخم.

وقد استخدم السارد بعضاً من التقنية الوثائقية التاريخية والإبداعية الفنية اللتين كانتا حاضرتين في هذا العمل، وهذه هي إحدى التقنيات المستخدمة، وتليها تقنية أخرى وهي عرض المعلومة التاريخية من خلال انعكاسها على تصرفات الناس وسلوكياتهم وظهورها في حواراتهم، ومن غير حصر المعلومة في شخصية السارد العليم، بل يفتح المجال أمام ذاكرة الشخصيات لتحلل وتخمن وتتخيل وتقول ما تشاء، ثم تأتي تقنية أخرى كأن تُروى الأحداث بطريقة متصاعدة تجعل المتلقي محتاجا إلى خاتمة تاريخية تحسم الموقف وتكشف النهاية وهنا يأتي السارد العليم بالخبر التاريخي الصادق لينهي حدثاً تاريخياً حقيقياً يكسب متابعة المتلقي.

كما يلحظ من خلال هذه الدراسة أن السارد كان على قدرة فائقة في توظيف اللهجة العراقية المحلية، وتوظيف بعض الأمثال السائرة في البيئة العربية، أمّا اللهجة العراقية المحلية فكانت ظاهرة في الرواية بكل وضوح وإنْ كانت بعض ألفاظها صعبة الإدراك على غير أصحابها، إلاّ أنَّ براعة السارد الروائية استطاعت إزالة لبس اللهجة وجعلها واضحة من خلال سياقاتها الواردة فيها والحوارات التوضيحية التي تساعد على فهم المقصود العام، أمَّا توظيف المثل فكانت مهمته إعطاء السارد فضاءاً تعبيرياً واسعاً وبألفاظ قليلة، يستطيع

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

السارد من خلاله نقد الواقع السياسي أو الاجتماعي الذي يكتنفه سواءُ واقع الرواية التـاريخي أو الواقع الحالي، فكان المثل غطاء رأس المحارب الذي يحميه خطر الإصابة القاتلة.

كما تجدر الإشارة إلى أن السارد أو المؤلف قد استغل عاملي الزمان والمكان فقـد كـان توظيفهما في العمل الروائي توظيفا موفقاً، فكان لذكر الأيام والأسابيع والشهور والسنوات وقع حسيّ ومدرك لأزمنة الرواية وتحديداً دقيقاً، فقد كان السارد حريصاً منذ بداية العمل الروائي إلى نهايته على توثيق الأحداث سواء التاريخية الحقيقية أو المتخيلة الروائية، ومن خلال زمن هذه الرواية التاريخية الواقعة أحداثها في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي إبان فترة حكـم الدولة العثمانية للدول العربية والتي استطاع السارد أو المؤلف أن يضعنا في زمنها وكأننـا نعيش أحداثه بكل سهولة وتشويق، بل كان التشويق لأحداثها موجوداً وحاضراً فكان ذلك دافعاً لإتمام عملية القراءة على الرغم من طول صفحات هذا العمل البالغة(١٣٩٩) صفحة، ومـن غير ملل يذكر.

وقد كان لذكر المكان حظ وافر في هذا العمل، فقد أكثر عبد الرحمن منيف في الروايـة من ذكر بغداد ومناطق شمال العراق وجنوبه، فكانت بعض المناطق للحروب كمناطق البدو، وكان بعضها الآخر مناطق للرحلات والترفيه النفسي، سواءُ لداود باشا أو للقنصل البريطاني ريتش وزوجته ماري، مروراً بمناطق نهري دجلة والفرات اللذَّيْن كان لهما الدور البارز في عملية الزراعة، فكما كانا مصدر خير وسعادة لشعب العراق كانا بالدرجة ذاتها مصدر قلـق وخوف وضنك لما لهما من مخاطر الفيضان السنوي المتكررة.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المصادر والمراجع

١. إبراهيم صالح، **الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٣م.

٢. إبراهيم صالح، **أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمن منيف**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٤م.

٣. أحمد محمد عطية، **الرواية السياسية: دراسة نقدية في الرواية السياسية**، مؤسسة معتوق، بيروت، ١٩٩٨م.

٤. بدر شاكر السيَّاب، **ديوان السيَّاب**، المجلد الأول، دار العودة، بيروت، ١٩٧١م.

٥. جورج لوكاش، **الرواية التاريخية**، ترجمة صالح جواد كاظم، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، بغداد، ط٢، ١٩٨٦م.

٦. جيرالد برنس، **المصطلح السردي**، ترجمة: عابد خزندار، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.

٧. حميد حمداني، **بنية النص السردي**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ٢٠٠٠م.

٨. حنا بطاطو، **العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني وحتى قيام الثورة**، ترجمةعفيف الرزاز، الأبحاث العربية، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

٩. ستيفن هيمسلي، **أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث**، ترجمة جعيفر الخيَّاط، مطبعة البرهان، بغداد، ط٣، ١٩٦٢م.

١٠. سعيد يقطين، **الرواية والتراث السردي**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢م.

١١. سعيد يقطين، **انفتاح النص الروائي**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٨٩م.

١٢. سعيد يقطين، **تحليل الخطاب الروائي: الزمن، السرد، التبئير**، المركز الثقافي العربي،

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

بيروت، ط٣، ١٩٩٧م.

١٣. سمير الحاج شاهين، **لحظة الأبدية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١م

١٤. شاكر النابلسي، **جماليات المكان في الرواية العربية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٩.

١٥. صالح صلاح، **سرديات الرواية العربية المعاصرة**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003م.

١٦. صلاح فضل، **أساليب السرد في الرواية العربية**، دار سعاد الصباح، الكويت، ١٩٩٩م.

١٧. عبد الحميد المحادين، **التقنيات السردية في روايات عبد الرحمن منيف**، المؤسسة العربية، بيروت، ١٩٩٩م.

١٨. عبد الرحمن منيف، **أرض السواد(رواية)**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء ط٤، ٢٠٠٤م.

١٩. ... **الكاتب والمنفى: هموم وآفاق الرواية العربية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٤م.

٢٠. ...**رحلة ضوء**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٣م.

٢١. عبد العزيز نوار، **داود باشا والي بغداد**، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.

٢٢. عبد الكريم العلاف، **بغداد القديمة**، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٩٦م.

٢٣. عبد الله إبراهيم، **السردية العربية الحديثة**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٣م.

٢٤. ... **السردية العربية: بحث في البنية السردية والموروث الحكائي العربي**، المؤسسة

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

العربية للدراسات والنشر، ط٢، ٢٠٠٠م.

٢٥. ... **المتخيل السردي**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٠م.

٢٦. عبد المحسن طه بدر، **نجيب محفوظ، الرواية والأداة**، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٨م.

٢٧. عزيز جاسم الحجية، **بغداديات: تصوير للحياة الاجتماعية والعادات البغدادية خلال مائة عام**، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٦٧م.

٢٨. عمر رياض وتّار، **توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة**، دار الشرق العربي، بيروت، ١٩٨٣م.

٢٩. غالب هلسا، **المكان في الرواية العربية**، دار ابن هاني، دمشق، ١٩٨٢م.

٣٠. فخري صالح، **الرواية العربية والصحراء**، وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٩٦م.

٣١. فراس السوّاح، **لغز عشتار**، دمشق، دار علاء الدين، ط٥، ١٩٩٣م.

٣٢. فيصل درّاج، **نظرية الرواية والرواية العربية**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٩م.

٣٣. فيليب سيرنج، **الرموز في الفن، الأديان، الحياة**، ترجمة، عبد الهادي عباس، دار دمشق، دمشق، ط٢، ١٩٩٢م.

٣٤. ماهر جرّار، **عبد الرحمن منيف والعراق**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٥م.

٣٥. مصطفى حجازي، **التخلف الاجتماعي**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٧٧م.

٣٦. نجوى الرياحي القسنطيني، **الأبطال وملحمة الانهيار: دراسة في روايات عبد الرحمن منيف**، مركز النشر الجامعي، تونس، ١٩٩٩.

٣٧. نجوى الرياحي القسنطيني، **الوصف في الرواية العربية**، دار الفارابي، بيروت ٢٠٠٨م.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٣٨. نجيب محفوظ، **بداية ونهاية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط٥، ١٩٨٢م.

٣٩. نضال الشمالي، **الرواية والتاريخ**، وزارة الثقافة، عالم الكتب الحديث، اربد، ٢٠٠٦م.

٤٠. يوسف عزالدين، **داود باشا ونهاية المماليك في العراق**، مطبعة الشعب، بغداد، ط٢، ١٩٧٩م.

الدوريات والرسائل:

١. حاتم عبد العظيم ، **أرض السواد..أرض الناس**، مجلة فصول، ع٦٥ ، ٢٠٠٤م.

٢. رأفت الشيخ، **تاريخ العرب الحديث**، عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٤م.

٣. الرشيد بشير بوشعير، **توهج ملّ الرماد في ثلاثية "أرض السواد" دراسة في رواية عبد الرحمن منيف**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الإمارات العربية المتحدة، العين، شؤون اجتماعية، ع٨٦، سنة٢٢، ٢٠٠٥م.

٤. شاكر عبد الحميد، **عالم عبد الرحمن منيف الروائي**، إبداع، ع١، ١٩٨٥م.

٥. عيسى نوري علي قويدر، **عبد الرحمن منيف روائيا**، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٨٤م.

٦. غائب طعمة فرمان، **عبد الرحمن منيف والإنسان العربي المقهور**، الآداب، ع٦، ١٩٨٠م.

٧. ماهر جرار، **أرض السواد: خضار السرد**، مجلة فصول، ع٤، السنة ٥٩، بيروت، ٢٠٠٣م.

٨. مدحت الجيّار، **قناع السرد في أرض السواد**، مجلة فصول، ع٦٥، ٢٠٠٤م.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٩. نجوى الرياحي القسنطيني، **الحلم والهزيمة في روايات عبد الرحمن منيف**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد ٣، ١٩٩٥م.

١٠. نضال الشمالي، **السردية التاريخية الحديثة، أرض السواد، لعبد الرحمن منيف**، مؤتة للبحوث والدراسات، مجلد ٢٠، عدد٨، ٢٠٠٥م.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

The Narrative Structure and it's Historical function Abdulrahman Munifs Novel "Ard AL-Sawad"

Abstract

This study focused on searching in the narrative structure in this novel, also. It focused on the narrative and his role in determining narrative ways and narrative attitudes in managing events and distributed them in all novel chapters. The study revealed the extent of narrative ability of managing events and transporting reader from the novel center to the areas of south Iraq, then, to north Iraq, these transports were extruded and large, also, their events were linked and in serial with out any wrong in the novel parts, except some narrative separation by the narrative to remention it when he needs through the narrative reviewing, using some narrative techniques which help him to continue his novel.

Also, this study analyzed some narrative characters such as the character of Sa'ond basha, the ruler of naghadad which was related to ottoman country in Turkey, so, he was braught from the Turkish village (Teflees) when he was little baby, also, the study mentioned some political sides for the direct and indirect relation between Da'and Basha and Ritsh, the british governer.

Then, the study conducted a research in abdul Rahman Munifs Novel "Ard AL-SAwad" . trying to be aware of the major novel sides, and showing the various narrative conversations, in which the narrator

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

used the local Iraqi dielectinstead of the formal language between the Iraqi society groups. So, the study investigated all Iraqi life sides in some cities in Iraqi, such as baghad – the primary center in ard al-sawad –in which all narrative events were done, and al-Bassra city, which is the far south of Iraqi and the narrative areas represented with aL-Mousil and karkonk which were a visited place for the narrative journeies, and some other Iraqi cities which were the place of some events in that stage.

Then, the novel came to show the social, religious, political and economic aspets, and the personality Iraqi life represented in marriage, food, drink, clothes, singing, and dancing, and the study showed the religious customs which were believed and practiced, also, it revealed the political Iraqi life, also, it is being depth in studying the quite and not conversations between people and the castle and balios men then, the study analyzed the economic life and its role in affecting political life, which represented in agriculture and trade.

I made on effort in this study in searching for useful resources and references which contribute in it's success, so, I depend on some history, and critic and literature text books, and some novels and university thesis. This thesis consists of four chapters: in the first chapter I studied "the narrative structure in the novel "Ard Al-Sawad", and it the second chapter "the narrative characters in Ard Al-Sawad" and in the fourth chapter" narrative spaces in the novel Ard AL-Sawad".

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

The study made use of some important references which provide it of the useful in for mation, such as: the study of nidhal Al-shamali "the novel and history", and the study of Al-Rushid Badhir Bou sha'ir" tawahuj mall AL-Ramad Fi thulathiyat Ard AL-Sawad", and the study of midhat al-Jayyar. "Qina' Al-Sard fi Ard Al-Shawad".

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University